
رواية
فتنة
عبد الرحمن قلاوون

عبد الرحمن قلاوون

رواية

فتنة

الكتاب: فتنة

المؤلف: عبد الرحمن قلاوون

ISBN: 978-2-9568172-5-3

البريد الإلكتروني:

ar.kalawoun@gmail.com

الطبعة الأولى

1445 هـ – 2023 م

القياس: 19.4 x 13.6

عدد الصفحات: 192

تصميم الغلاف:

Motion Eye Productions

الإهداء

إلى كل من صحبت وأحببت

وإلى كل مهتم بالتاريخ ودارس له

وإلى كل صاحب ثغر وطالب حق

وإليك أيها القارئ الكريم

أهدي هذا الإصدار...

بسم الله الرحمن الرحيم

تنبيه

تدور أحداث هذه الرواية شرقي الأندلس في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري الحادي عشر للميلاد، أبطالها ومحطاتها ثمرة خيال بينما أسماء المناطق والسياق التاريخي والاجتماعي والسياسي فهي في الغالب الأعم حقيقية. هذا وقد تم تغيير أسماء بعض الممالك والأسر الحاكمة عمداً لتجنب الخلط بين الوقائع التاريخية ومجريات الرواية.

الجزء الأول

(1)
الهمّ

كان يذرع الغرفة جيئة وذهاباً دون كلل ووجهه المكفهر يفضح ثقل الهموم التي تثور في رأسه. عيناه حمراوان باد عليهما التعب والإرهاق لكنه وبالرغم من هذا كله لم يعرف النوم إليه سبيلاً طيلة ليلته تلك. وما الفرق، فلقد نسي طعم النوم المريـح منذ سنة، منذ أن رحل والده عن هذه الحياة تاركاً إياه في خضم بحر تتلاطم أمواجه العاتية فتتقاذفه يميناً وشمالاً وهو لا ينفك يحاول النجاة منها ويجاهد كيلا يغرق، ولكيلا ترميه موجة من تلك الأمواج رمية غادرة بعيداً جداً حيث لا رجوع ولا حياة.

اعتدلت زوجته في فراشها ونظرت إليه بإشفاق... شعره المشعث على غير ما يحب دليل على أنه شدّه مرات ومرات في تلك الليلة. هي أيضاً حاولت أن تنام لكن حركة زوجها وعصبيته لم تسمحا لها بنيل ما تريد كما تريد، ولكنها على الأقل لا تحمل من الهموم والأثقال ما يحمله هو في رأسه.

ترددت قليلاً قبل أن ترسل كلماتها إليه بصوت حنون دافئ:

- أسعد الله صباح مولاي الأمير. أرى أنك لم ترح جسمك الليلة أيضاً!
- سامحيني يا حسناء إن كنت أقلقت راحتك... لم أقصد أبداً إزعاجك.
- لم تزعجني يا أبا أحمد، ولكني قلقة عليك؛ أراك تزداد هماً يوماً بعد يوم ويزداد جسمك نحولاً وأنت أمير البلاد ولا بد من أن تكون بكامل صحتك لكي تقوم بأعباء إمارتك على أفضل وجه.
- آه يا زوجتي العزيزة، وهل أطار عن جفني الرقاد إلا هموم هذه الإمارة!
- خير إن شاء الله، أهي الحرب مجدداً؟
- ليتها كانت حرباً واحدة فنستريـح!
- ماذا يقصد مولاي؟
- إنها مشاغل الحكم وتحدياته، ولا أراها إلا في ازدياد يوماً بعد يوم.
- وهل بإمكان خادمتك المطيعة أن تخفف عنك شيئاً منها؟

- أخشى أنه ليس بمقدور أحد أن يخفف عني؛ كل الرجال من حولي طامعون ومغرضون، همهم الأوحد الظفر بالوزارة وتحصيل مزيد من القوة والنفوذ.

كان أبي رحمه الله يعرف كيف يوازن بينهم، كيف يوجه بأسهم ليقوّوه وكيف يلجمه إن هم تخطوا حدودهم. بل كان عنده من الوقت وهناء البال ما يسمح له بالنظر في العلوم والكتابة في الفلك والرياضيات. أمّا أنا فأجدني محاطاً بعيون تنظر إليّ نظرة الاستخفاف والازدراء؛ يتقربون مني لينالوا مبتغاهم، فإن أجبتهم أكلوني، وإن منعتهم آذوني. ثم هم بعد كالديكة بين بعضهم البعض، لا بل كالتيوس الهائجة، فليس يتردد أحدهم في الطعن بالآخر والغمز واللمز من طرفه، بالكلام تارة وبالمكائد أخرى ليحط من قدره أو يزيحه عن مكانه. وأراني عالقاً وسط هذه الدوامة لا أعرف كيف أخرج منها سالماً معافى.

- ألا يستطيع مولاي أن يعزلهم جميعاً ويأت بآخرين؟
- ليست المسألة بالسهولة التي تتصورين، فلا بد للحكم من أدوات وقوى تمكّنه وتحميه، وبيد كل واحد من هؤلاء ما يدفع للتمسك

به ويحذّر من معاداته، من الوزير الأول إلى سابقه مروراً بقائد العساكر والسيد الكمبيادور ومقدّم الشرط والقائم بشؤون القصر وحتى الحاجب. بل إنني بت أخشى أن يطمع بي طباخو القصر وخدمه. وفوق ذلك كله، فإن الممالك من حولنا تتربص بنا وتنتظر ساعة الغفلة للانقضاض علينا وابتلاعنا على حين غرة؛ فأخواي يطمع كل منهما فيما تحت يدي من البلاد، وملوك أراغون وقشتالة ونفاره لا يتورعون عن مهاجمتنا شمالاً وعن إزعاجنا ومطالبتنا بالأموال والجزية ليكفّوا أذاهم. وبنو جندل غرباً يتطلعون للانتقام مما فعله بهم أبي ومن قبله جدي سليمان. وكذا العامريون جنوباً ومن احتمى بهم ممن كانت له معنا خصومة أو ثأر. والله يا زوجتي لولا لطف الله بنا لكنا الآن مزعاً تتناهشها أنياب هؤلاء وهؤلاء. وكلما تأخرت في تثبيت ركائز حكمي كلما دنت نهايتي بل نهايتنا جميعاً ولن تكون إلا شنعاء مروعة ما لم يتداركنا الله برحمة من عنده.

- ورجالك هؤلاء، أليس فيهم من تثق به أكثر من غيره؟

- كنت أحسب ذلك، إذ أني استبقيت أبا المطرّف الذي قلده أبي الوزارة الأولى قبل وفاته بشهرين، وهو من أصدقائه القدامى، ولكنه ما لبث أن استفرد بالرأي وراح يشرّع كأنه هو الأمير لا أنا، وكلما واجهته باعتراض أجابني كما يجيب المعلم المتكبر تلميذه الغبي، كأنه لم ير قط أميراً لا يكاد يتجاوز الثلاثين من عمره! فلم يترك لي خياراً في عزله وتعيين غريمه أبي الفضل في منصبه، بَيد أنّ هذا الأخير لم يكن أفضل حالاً من الأول وإن كان لسانه أطرى وأحلى من لسان سابقه.
- أصدقك القول يا أبا أحمد أني لا علم لي بالسياسة ومشاكلها، ولكني سأدعو الله لك عساه يخرجك مما أنت فيه من الهم والكمد ويديم عليك الأمن والأمان والقوة والمجد. وإن كان عندي من نصيحة فهي أن تستعين بمن تثق به ولا مطمع له في ملكك وإن كان فرداً ضعيفاً فإنه يتقوى بك، وتمكّن له شيئاً فشيئاً دون أن تهيّج عليك الذئاب التي حولك.
- هو كذلك يا عزيزتي حسناء، هو كذلك. وإن كان السؤال لا يزال عالقاً: من هو الشخص الذي يجب أن أستعين به وكيف أجده...

على كل حال، مري لنا بالطعام والثياب فقد دنا وقت خروجي إلى مجلسي ولا بد لي مما يشد صلبي فإني لم أذق طعاماً منذ ظهر البارحة.

- بأمر مولاي... شيء آخر إن سمح مولاي الأمير.
- تفضلي!
- ابنك أحمد...
- ما له... هل أصابه مكروه؟
- لا شيء على الإطلاق، ولكن أنصحك بأن تعدّه منذ اليوم لدهاليز الحكم ومكائده، فإنك لن تجد خيراً لك منه إلى جانبك.
- ولكنه لا يزال فتى صغيراً، إنه حتى لم يتجاوز الثانية عشر من عمره.
- أدري ذلك، ولا أطلب من مولاي إشراكه في الحكم من الآن، معاذ الله وأطال عمر مولاي الأمير وأدام عليه الصحة والعافية. وإنما أرجو أن تأمر أفضل المأدبين والمدربين والشيوخ ليهتموا به ويعلموه ما يلزمه، فزمن اللعب لمن كان مثله ولّى وراح.

- حسناً، أفعل إن شاء الله... أو فافعلي أنت ما شئت واختاري له من ترضين فإني لا أحسبني قادراً على متابعة هذه التفاصيل الآن. وأرسلي إلى الشيخ الحسن بن عبد الله التجيبي ليسمي لك من يرضى عقله ودينه، فإنك لن تجدي أصدق في النصح منه وهو من هو في علمه وحكمته، أقرب الناس إلى شيخه العلامة أبي الوليد الباجي الذي ارتضاه ليدرّس من بعده في الجامع الكبير حين غادر سرقسطة إلى ألمرية، وسليه أن يختاره من أهل الثقة والحفظ واكتمي هذا الأمر عن الخدم والخواص.
- بأمر مولاي الأمير.

(2)

مع العجوز

في القصر، كان الخدم منهمكين في أعمالهم اليومية؛ تنظيف الأرض ونفض الغبار وتعطير المكان على الرغم من أن عطر الربيع الرائق الفواح يكفي ويعمّ ليس فقط دهاليز القصر بل وجميع طرقات وسبل سرقسطة وما حولها، غير أنّ الواجب هو الواجب، ولا يجوز ترك ثغرة لخلل أو صدفة في قصر الجعفرية، أعظم وأفخر القصور الملكية في شرق الأندلس وغربها. صحيح أنّ الحماسة لم تعد تدب في القصر كما كانت قبل سنوات قليلة، ولكنّ إبراهيم بن يحيى القائم على القصر رجل حازم لا يتساهل قط مع أدنى تقصير.

فوجئ الحرس في ذلك الصباح بصوت المنادي يعلن وصول صاحب سرقسطة وأميرها المعظم إسماعيل بن أحمد بن سليمان بن عوّاد إلى الرواق الذهبي، وهرع حاجبه أبو المحاسن عثمان ومعه إبراهيم بن يحيى إلى استقباله وكل منهما يتساءل في نفسه عن سر حضوره المبكر في هذا اليوم.

- هل حضر الكاتب يعقوب يا أبا المحاسن؟
- لا يا مولاي، عادة ما يصل بعد الشروق بساعة.
- والوزير أبو الفضل؟
- لا بد أنه على وشك الحضور. هل أرسل من يستعجله يا مولاي؟
- لا داعي لذلك. ماذا عن أمين الخزانة يا عثمان؟
- رأيته يدخل القصر قبل وصولكم بلحظات يا مولاي.
- حسناً، ربما مررنا بغرفته بعد قليل، ولكن دعنا أولاً نجول في أرجاء القصر ونرى كيف تسير الأمور.

ذهل القائم إبراهيم لهذه العبارة وكأنّ الدم تجمد في عروقه، ثم استجمع رباطة جأشه وسأل بصوت متردد:

- من بعد إذن مولاي الأمير، هل لاحظتم عيباً في عملي أو رفعت إليكم شكوى بشأني؟
- لا هذا ولا ذاك يا إبراهيم، ولست عندنا بمتهم.
- فهل ننتظر إذن ضيوفاً رفيعي المقام؟
- ولا حتى هذه، ولكني أحببت أن أعاين بنفسي مجريات الأمور داخل القصر وأن أرى بأمّ عيني ما يدور خلف الجدران. تخيل أني

وأنا حاكم هذا القصر أجهل كثيراً من تفاصيله، ولم ألج أروقته الجانبية منذ سنوات صباي.

- كما يحب مولاي الأمير. نستطيع أن نبدأ متى شئتم وبالجناح الذي تريدون.

- وأنت يا عثمان، متى وصل وزيرنا أبو الفضل مره ينتظرنا في مجلس الحكم وأرسل في طلب قائد عساكرنا وقاضي القضاة ليكونا في المجلس ضحى، ثم استدع أمين الخزانة متى اكتمل عقد الثلاثة الأول، وأرسل كذلك للسيد الكمبيادور ليأتينا بعد الزوال.

- بأمركم مولاي الأمير.

خطا بعدها الأمير إسماعيل باتجاه أول جناح يقع إلى يمين مجلسه المعروف بمجلس الذهب، أو البهو الذهبي، لروعته التي زادتها النقوش والتحف الذهبية البديعة المزينة جدرانه.

كان يمشي على تؤدة، ففكرة الزيارة المفاجئة راودته في طريقه إلى المجلس قبل برهة من الوقت ولم تختمر جيداً في رأسه بعد، ولكن اندفاعه غلب عليه فشرع فيها دون سابق تحضير.

كان كمن يبحث عن خيط من الضوء وسط غلالة من الحواجب المظلمة، ولقد وجد نفسه وهو السيد المطاع غريباً عن جل المحيطين به، فكيف يثق بمن يجهل، وكيف إذن يخلص له من يجهلونه.

التفت الأمير إلى القائم الذي كان يمشي متأخراً عنه بخطوتين سائلاً:

- من أقدم العاملين في هذا القصر يا إبراهيم؟
- لا أحسبها إلا العجوز فاطمة يا مولاي. إنها طاهية خبيرة عملت لأبيكم رحمه الله منذ أن أقام في هذا المكان وكانت عملت من قبل لجدكم سليمان وسمعت أيضاً أنها كانت في صباها في خدمة بني حسان. وقد حاولت صرفها ولكنها رجتني ألا أحرمها شرف خدمتكم وهي في هذه السن. وجميع العاملين معها يكنّون لها المودة والتقدير فسمحت لها بالبقاء جبراً لخاطرها.
- خذني إليها إذن، أعرف أن العجائز غالباً ما يستيقظن باكراً.
- هو كذلك يا مولاي، وهي، وعلى الرغم من تخطيها السبعين من العمر، لا تتأخر عن موعد حضورها اليومي.

واجتاز الرجلان الممرات والغرف مارين بحرس القصر وجواريه وخدم الضيافة والبستانيين وغيرهم وصولاً إلى المطابخ تاركين كل هؤلاء في حالة من الذهول تتنازعهم مشاعر الخوف والسرور إذ أنهم لم يعهدوا دخول ملوكهم عليهم فضلاً عن أن يتبادلوا معهم أطراف الحديث. وما إن وصلوا إلى الغرفة التي يقصدون حتى هبّ الجميع واقفين ومثلهم حاولت العجوز فاطمة الوقوف ملقية ما بيدها من أعشاب عطرية كانت تعالجها، بيد أنّ الأمير طلب إليها أن تبقى جالسة ثم طلب من الجميع مغادرة المكان ليخلو بال"جدة" كما سماها. وسرعان ما ألقوا ما في أيديهم وتسابقوا الباب خارجين يحثهم سيّدهم إبراهيم الذي كان آخرهم خروجاً والذي أوصد الباب ووقف ليتأكد أنّ أياً من الخدم لن يسترق السمع، بيد أنّ سمعه هو كان في أقوى حالاته!

" أرجو أنني لم أزعجك يا خالة! " قال الأمير وهو يقلّب الأفكار في رأسه ويبحث عن الكلمات المناسبة.

- معاذ الله يا سيدي، مثلكم يؤتى ولا يأتي.
- لا بأس، ليس هذا بشيء. سمعت أنك طاهية ماهرة!

- كان هذا أيام الشباب الذي ولّى يا مولاي، أمّا الآن فلم أعد أقوى على الوقوف الطويل ولا على تحريك القدور وحمل الأثقال.
- فما عملك إذن في القصر؟
- أرجو ألا يضيق بي حلم مولاي، فقد كبرت في خدمة أصحاب هذا البيت نصرهم الله ولا أعرف العيش خارج جدرانه.
- لا تقلقي يا خالة، ليس هذا ما أردت، إنما أحب أن أسمع منك وصفاً لما تفعلين.
- أعلّم الطهاة يا مولاي وأنصحهم وأفحص الأعشاب والمطيبات لأتأكد من جودتها وملاءمتها للطعام الذي يعدّ.
- وهل تحضرينها بنفسك أم توكلين أمرها إلى كبير الطهاة؟
- أحضرها بنفسي! يا حسرة... وهل بقيت بي قوة لذلك؟! كنت أيام صباي أقصد الحقول والبراري والأسواق لأختار الأعشاب والمطيبات ولم أكن أرضى أن يوكل هذا الأمر لسواي، أمّا الآن، فوا أسفي على حالي الآن! لقد عملت عندما كنت في السابعة عشر من عمري مع رجل نصراني من أراغون كان يطهو للحساني صاحب سرقسطة في ذلك الوقت، وكان هذا الأراغوني خبيراً

بالأعشاب وصنوفها ومنابتها وكيفية تحضيرها فتعلمت منه الكثير. وأرض سرقسطة يا مولاي كما الضياع التي حولها غنية بالزهور والرياحين ومختلف النباتات، وكانت تأتينا أيضاً حبوب نادرة يحملها الجنويون والبنادقة عبر البحار، فكان كبير الطهاة هذا يرسل من يجيئه بها من طرطوشة أو حتى بلنسية على البحر، أمّا الآن فلم تعد قدماي قادرتان على المشي والوقوف الطويل، فأكتفي بالجلوس هنا أعاين الأعشاب والعطور وأصناف العسل وغيره وأنقل ما أمكنني نقله من تجارب السنين إلى الفتيات الصغيرات لعلهن يتقنّ تطييب الطعام.

أرجو من مولاي الأمير أن يعذرني إن أنا نسيت نفسي وأسهبت في الكلام ولا يجدر هذا بمن يخاطب الملوك والأمراء.

- لا داعي للاعتذار، ولكن قولي لي... كيف كسبت قلوب العاملين معك وتجنبت عداوتهم طيلة هذه السنوات؟

- الأمير محقّ في سؤاله، فليس يسلم أحد من الحسد والضغينة، من أقرب الأقربين إليه أو ممن يجهلونه، فلا يكاد يكون إنسان في القصر إلا وهو متطلع لمنصب أعلى وترقية أسمى، وربما سعى

ليطيح برئيسه ليخلفه في مكانه. أمّا خادمتكم المطيعة يا مولاي فإنها لم تنازع أحداً منصبه ولا طمعت فيه ولا كادت له أو تكلمت عليه بما يسوءه، وعلى الرغم من كل ذلك فإنني لم أسلم من بعض ألسنة الحاسدين وسوء ظن المغرضين، ولكنّ الله سخّر لي من أهل الخير والقلوب البيضاء من يذبّ عني ألسنة السوء ويدافع عني في غيابي وحضوري، فالحمد لله رب العالمين.

- جميل، ولا بد أنك تستحقين ذلك وزيادة. وأخشى أن تفتح زيارتي هذه عليك أبواب الحسد والقيل والقال.
- قطع الله ألسنة الحساد والنمامين وأدام عزكم يا مولاي. جلوسكم معي أغلى عندي من كنوز الدنيا كلها.
- بوركت يا خالة، وسآمر لك بمكافأة تسرّ خاطرك وتثلج صدرك، و... وتحرق قلوب حاسديك.
- كل الشكر لكم يا مولاي، حماكم الله ونصركم على أعدائكم وكفاكم شر الأشرار وحسد الحاسدين ومكر الماكرين.

ومع دعوات الحاجة فاطمة، نهض الأمير عائداً إلى مجلسه وذهنه لا يزال نهب الأفكار والخواطر.

(3)

أول الخيط

هبّ عثمان واقفاً وأسرع الخطى نحو سيده حالما رآه يلج الممر المفضي إلى رواق الذهب مبلغاً إياه بحضور الوزير وقائد العساكر وقاضي القضاة، وأنه أدخلهم المجلس وأرسل إلى أمين الخزانة يستدعيه للانضمام إليهم كما أمر الأمير.

وما هي إلا لحظات حتى اكتمل النصاب وقطع الأمير الصمت قائلاً:

- جمعتكم هذا الصباح يا سادة لمناقشة أمر خطير وحادث جلل، أمر يستدعي منا التحرك على وجه السرعة فلا مجال للتأخير. تعرفون أنّ أبي رحمه الله قسّم ملكه بين أولاده الثلاثة، وأوصانا ألا نختلف ونتقاتل فتذهب شوكتنا وتزول هيبتنا وتغرب شمسنا. ولكنّ الرسل جاءتنا أمس بخلاف ذلك، إذ نقلت إلينا عيوننا أخبار حشد أخينا الأمير المنذر لحربنا واتصاله بملك الأراغون لمعاونته في عدوانه، وأنه أدى إليه من الذهب والفضة والخيل والسلاح ما لا عدّ له ليشتد بأسه علينا. وعليه فقد

جمعتكم على وجه السرعة لأستشيركم في المبادرة إليه فنتغدى به قبل أن يتعشى بنا. وإني لحريص، قبل أن أفصل في الأمر، على استبيان آراء أهل ثقتي ومشورتي، وليتكلم جناب قاضي القضاة أولاً.

- الأصل يا مولاي تقديم الصلح وصون حرمة الدم والنسب. أمّا إن كان الأمير واثقاً مما بلغه وحاول جهده لرأب الصدع وتجنب القتال دون جدوى، فالضرورة تبيح الرد على العدوان بما يناسبه.

- نحن واثقون مما بلغنا يا جناب قاضي القضاة، ووالله لولا الحرمات التي ذكرت وحرصنا على صونها لما تأخرت في اتخاذ قرار الحرب. ولكن الأمر كما أوضحت، فأخي طامع في عرشي هذا ويرى نفسه أحق بوراثة أبينا من أخويه ومن الناس أجمعين.

وأنت يا وزيرنا؟

- الرأي رأي مولاي الأمير، وإن كنت أنصحه بالمبادرة للهجوم قبل أن تكتمل استعدادات المنذر، فوالله لمولاي الأمير أحق بحكم لاردة ونواحيها من أخيه. وإن كان المنذر استعان بملك الأراغون فلنبادر إلى الاتصال بملك قشتالة فنستميله إلينا، ولنعرض عليه

في سبيل دعمه أكثر مما كنا نؤديه ليكف عنا أذاه، فمملكتا قشتالة وأراغون لم تزالا على خلاف وتنافس منذ سنوات عديدة، وولاؤهم كما يعرف مولاي الأمير للذهب قبل كل شيء.

ثم إنّ أخاكم المنذر تمادى في غيه وفجوره حتى صار مضرب المثل في اللهو واللعب ضارباً بعرض الحائط هيبة أبيكم المفدى رحمه الله. وهو ما حدا بأهل قلعة أيوب وتطيلة وما جاورهما إلى تلقيب أخيكم الثاني الأمير يوسف بالزاهد تهكّماً لإعراضه عن مجالس اللهو واللعب وتجنبه الحروب والصراعات. وأنتم يا مولاي أعقل الأمراء الثلاثة وأرشدهم وأجدرهم بالملك، فلنبادر إلى ضم أرجاء مملكة أبيكم المفدى رحمه الله من جديد تحت رايتكم، والحرب خدعة والغلبة لمن سبق.

"الزاهد"... دوّى لهذه الكلمة في مسامع الأمير إسماعيل طنين كطنين النحل وتردد كرجع الصدى. كانت كلمة عابرة مرت في جو من السخرية فلم يتوقف عندها أحد... إلا الأمير.

هو ذاك... أجل، هو ذاك. لا بد لي من رؤيته، فلا أحد غيره يستحق هذا المنصب، ولا أحد غيره مستعد للوقوف إلى جانبي بإخلاص وصدق مثله. ولكن الوقت الآن وقت الحرب، فلنحسمها بسرعة ثم نعود إلى صاحبنا الزاهد هذا.

كان الأمير إسماعيل غارقاً في أفكاره، وارتسمت على وجهه ابتسامة كانت قد ضلت طريقها إليه منذ شهور عديدة. أمّا الآن، فإنّ الغمامة انقشعت وظهر له ضوء الشمس الذي سينقذه من كل ما يؤرقه.

ولمّا طال صمته تنحنح الوزير أبو الفضل ثمّ قال:

- بماذا يأمر مولاي الأمير؟
- أجل، أين كنا... إنها الحرب إذن!

  قل لي يا قيس بن غالب، كم تحتاج من الجند والوقت والمال لتضمن الانتصار على أخينا ملك لاردة وما حولها؟
- لا أظن الأمير المنذر قادراً على تحريك أكثر من عشرة آلاف فارس وراجل. وأما ملك الأراغون فلا أظنه هو الآخر سيمده بأكثر من ذلك، إذ لا بد له من إبقاء حامية كبيرة تقيه غدرة صاحبي نافارة

وبرشلونة. وعليه فعلينا أن نحشد خمسة وعشرين ألفاً أو يزيد لنضمن الظفر، وهذا ما لا يتسع الوقت لإعداده فجندنا موزعون على مختلف الثغور وليس من الحكمة سحبهم جميعاً لهذه الحرب. أمّا إذا قبل القشتاليون القتال إلى جانبنا حركنا عشرة آلاف من جند سرقسطة وخمسة آلاف من وشقة ومثلهم من جنود السيد الكمبيادور إن هو قاتل إلى جانبنا، والبقية من القشتاليين ثمّ نهاجم جنود المنذر في لاردة إن أسعفنا الوقت، وإلّا ففي منتصف الطريق بينه وبين أفراغة قبل أن يصلها فنمنعه من التحصّن فيها ونبدد قواته قبل أن تقوى شوكته.

- نعم الرأي رأيك، وقد أرسلت في طلب صديقنا السيد الكمبيادور ردريغو دياث لأطلعه على هذه المستجدات، وسأطلب منه إقناع ملك قشتالة فقد كان من خاصته قبل أن ينزل في جوارنا. وليبق أمرنا هذا طي الكتمان لكيلا يبلغ المنذر فيأخذ حذره أو ملك الأراغون فيستغل غياب حامية وشقة لينتزعها وهو الذي لم يُخف يوماً نيته في ضمها إلى ملكه.

وأنت يا إسحاق، أجرِ لقائد عساكرنا ما يحتاجه من المال ليجهز به جند الحملة، وجهز عشرة آلاف دينار ذهباً ومثلها فضة وعشرة آلاف سيف وأعد سفارة تحملها إلى الملك ألفونسو ومعها كتابي له بطلب المعونة والمدد للحرب. وأرسل إلى العجوز فاطمة في المطابخ بألفي درهم هدية منّا إليها.

والآن قوموا إلى أشغالكم راشدين.

(4)

الزاهد

كانت المعركة أسرع مما تصور الأمير إسماعيل، فلقد فوجئ المنذر بجيوش أخيه وهي تحيط به من كل جانب حين كان في قلعة صغيرة على بعد ميلين من لاردة، وملك الأراغون الذي أخذ منه أرطال الذهب والفضة نكث بوعده وتخلى عنه، فلم ينجده أحد، اللهم إلّا صاحب بربشتر الذي سجن عنده بأمر الأمير إسماعيل فأطلق سراحه وتحالف معه. أمّا إسماعيل فسرعان ما ضم معظم أراضي أخيه إليه وتلقب بالمنتصر، وظن أنه بهذا النصر قد قضى على الوساوس والهموم إلى غير رجعة، ولكن هيهات! فأخوه المنذر عاد ليشن عليه الغارات الواحدة تلو الأخرى مستعيناً بملوك الإسبان حيناً وأمراء الولايات العربية الجنوبية أحياناً أخرى. وكان من خسته أن سلّم مدينة وشقة إلى سانشو راميز ملك أراغون بعد أن طرد منها الحامية الموالية لسرقسطة. أمّا بنو الرزين فقد رفضوا الانضواء تحت لواء المنتصر ودخلوا في حماية ملك قشتالة الذي ضم إلى

ملكه أراضي نافارة عبر المصاهرة، ثم هو قطع ما بينه وبين السيد الكمبيادور الذي فضّل البقاء مع مجموعة من الجند القشتاليين إلى جانب المنتصر. وأما صاحب بلنسية فها هو يعدّ العدة لحربه هو الآخر، ولا بد أنه سيستعين بغيره من الأمراء والملوك.

في خضم هذه المعمعة، لم تكن الأمور في قصر الجعفرية بأهدأ منها على الثغور، فالوزير أبو الفضل زاد غروره وكثرت مطالبه، والوزير الأسبق أبو المطرف لا يكف عن انتقاد سياسات القصر في كل ملأ ومناسبة، وبعض النبلاء لا يفتأ يحوم حول المنتصر يطلب الاستعمال على المدن الغنية أو الوزارة، وفوق ذلك كله كانت أصوات أهالي سرقسطة ترتفع اعتراضاً على التحالفات التي لا تتوقف مع مختلف الممالك الإسبانية. أمّا أخطر ما في الأمر فكان سريان الشائعات التي تتحدث عن امتعاض مقدم العساكر قيس بن غالب ومن معه وتبرمهم من حكم الأمير فما لبث أن عاد إسماعيل إلى دائرة التفكير والحزن مرة أخرى ولكن بهموم أثقل وتحديات أخطر وأشد. ثم تذكر كلمة السر التي كان نسيها مدة من الزمن... "الزاهد".

كان أخوه يوسف قد تلقب بالرضيّ، ولكن لقب الزاهد الذي انتشر بين العوام كان أشهر وأذيع وإن كان صاحبه ليس زاهداً بالمعنى الحرفي للكلمة. وكانت أراضيه تمتد من دروقة وروطة جنوباً إلى تطيلة شمالاً، كما كان يتخذ من قلعة أيوب على ضفاف نهر شلون مركزاً لإقامته وحكمه. فكانت تحده من الشرق مملكة سرقسطة ومن الغرب مملكة بني جندل ومركزهم طليطلة، ومن الجنوب مملكة بني الرزين ومن الشمال مملكة القشتاليين. وكان كما بني الرزين ينأى بنفسه عن الصراعات والتحالفات ليحفظ عليه ملكه المتواضع غير أنه لم يكن نصيبه من تركة أبيه ولا ثراء أراضيه بالقدر الكافي ليحفظ عليه أمنه مدى الدهر، وكان السؤال هو إلى متى يستطيع الرضيّ الاستمرار بهذه السياسة.

ولكن، وغير بعيد عن أراضي الزاهد، كانت تدور أمور غريبة!

فمع أولى خيوط شمس يوم ربيعي زاه جميل، عبَر نفر من الجند الملثمين أسوار سرقسطة باتجاه الغرب. كان منظرهم يلقي الهيبة والفزع في النفوس، فلا يكلمون أحداً ولا يعترض طريقهم أحد. وكان مما لفت أنظار الناس المنتشرين في الحقول والبساتين في ذلك

الصباح أنه لم تكن لهم ثياب موحدة، فكان كل خمسة منهم بلباس. الخمسة الأول يرتدون الدروع المعدنية البراقة والخوذ الملفوفة بالكتان الأخضر، فلا بد أنهم من جند السلطان. ثم خمسة يتميزون باللون الأحمر، فهم على ما يشاع بين الناس من حرس القصر! ثم خمسة باللونين الأبيض والأحمر وترى على أذرعهم الصلبان وعلى صدورهم الأسود الحمراء، فلا بد أنهم قشتاليون من جند السيد، والخمسة الأخيرون باللون الأزرق الداكن، وهي ألوان الصقالبة طائفة الوزير أبي الفضل. ولكن من تراه يكون الملثم الذي يحيطون به، والذي لا تشبه ثيابه ثياب أي من الفرسان العشرين؟ فلا هو مدرع بالحديد ولا يرتدي ثياب الحرب، وسيفه مطعم بالجواهر وغمده براق يلفت الأنظار من على بعد فرسخ أو يزيد. وثيابه مخملية لا يلبس مثلها إلا الحكام والأمراء.

استمر النفر في سفرهم ثلاثة أيام، وقد غادروا أراضي المنتصر بسهولة بالغة، ثم ولجوا أراضي أخيه يوسف خفية سالكين سبلاً غير مطروقة ومتجنبين الحصون والقلاع ونقاط تجمع الجند والمدن المزدحمة ما أمكن. ومع اقترابهم من قلعة أيوب ازداد حرصهم

وتخفيهم، فصاروا لا يتحركون إلا ليلاً، ولا يشعلون ناراً ولا يحدثون جلبة أو ضجيجاً، ثم أخذوا يبتعدون عن مجرى نهر شلون ليلتفوا حول أراضي قلعة أيوب حتى أصبحت وراءهم، وبعدها ساروا مع النهر مسيرة ليلة كاملة مبتعدين عن أسوار المدينة حتى وصلوا إلى نهر صغير يتفرع عن نهر شلون فتبعوه شمالاً حتى وصلوا وجهتهم مع صباح اليوم الخامس.

كان مكاناً نائياً على مشارف واد مخيف، ولم يكن هنالك شيء يؤبه له إلا غنيمات تسرح في زريبة صغيرة، وحمار مربوط إلى شجرة وكوخ قديم تصرّ أخشابه كلما داعبت أسطحه الرياح.

هنا ترجّل الفارس الأوسط وأماط لثامه ثم تقدم باتجاه باب الكوخ، وبترجله ترجل البقية وهمّوا باقتحام الكوخ على من فيه لكنه أوقفهم بإشارة من يده وطلب منهم أن يتراجعوا للخلف. ودنا من الباب ونادى بصوت هادئ على ساكن المكان، أما الفرسان فقد امتثلوا لأمر الرجل دون أن يفقه أحدهم شيئاً عن سرّ وجودهم في هذا الموضع الغريب.

" يا أحمد بن عليّ! " نادى الرجل وهو يدفع الباب برفق، ولما لم يجبه أحد أعاد النداء بصوت أعلى قليلاً هذه المرة ثم ولجه وهو يعيد النداء " يا أحمد يا تازيّ! "... وغاب عن الأنظار.

بعد مضيّ شيء من الوقت بدأت تراود الفرسان العشرين الشكوك حول سلامة من يحمون، فلا هم يرون شيئاً مما يحدث داخل هذا الكوخ المظلم ولا صوت يصل إلى مسامعهم ليتبينوا الموقف.

وطال انتظارهم حتى تحولت الشكوك إلى ما يشبه اليقين، فتشاوروا على عجل ثمّ استلّوا سيوفهم وتقدّموا باتجاه الكوخ ليقتحموه ولو أنهم نفخوا عليه بأفواههم لكانوا قلعوه من مكانه. ولكنهم وقبل أن يفعلوا رأوا شبحي رجلين يخرجان ببطء، الأول كان صاحبهم، والثاني كان رجلاً طويل القامة نحيل الجسم دقيق العظم يرتدي ثوباً خشناً أسود اللون فيه بعض الرقع البنية والخضراء. وأكملا طريقهما دون أن يلتفت أيّ منهما إلى الجنود الشاهرين أسلحتهم، ومضيا في طريقهما يتهامسان باتجاه النهر، وربما تخلل الكلمة وأختها ساعة صمت تطول أو تقصر.

هنا أغمد الملثمون سيوفهم، وتوقفوا عن التفكير ومحاولة فهم ما يجري فهو مما يعي العقول والأذهان، وإذا كانت هذه رغبة صاحبهم فليكن، فإنما هم جنود يؤمرون فيطيعون.

أما الرجلان فقد استمرا في حديثهما حتى بلغت الشمس عنان السماء، ثم دنا السيد من رجاله وأمرهم بالاستعداد للإياب إلى سرقسطة ومعهم راكب جديد.

(5)
الوزير الجديد

- لا أصدّق ما أسمع... صديقك الزاهد؟!
- أجل يا حسناء، وماذا في ذلك؟
- ولكن لا دخل له بالسياسة ولا باع ولا عصبة ولا فضل، فماذا سيضيف إليك؟ بل هو سيجمع عليك كل الخصوم والمتضررين.
- أدري وأدرك ذلك كله، ولكنه الوحيد الذي أثق به وبأنه لا يطمع فيما بين يدي وأنه سيكون إلى جانبي لأجلي لا لأجله. أما الآخرون فالصدمة ستجعلهم يُظهرون ما يبطنون، وهكذا أكون تخلصت من كثير من المغرضين بضربة واحدة.
- ولكن يا أبا أحمد، ألست تخاطر باستقرار ملكك بتوليته الوزارة؟
- ستكون الفترة الأولى صعبة بلا شك، ولكن يجب أن يعرف الجميع أنني أنا الملك لا هم، وأنه ليس لأحد منهم فضل عليّ.
- وهل تضمن حقاً إخلاصه وولاءه؟ أليست ربما غيرته السنون منذ أن عرفته؟ فأنا لم أسمع ذكره على لسانك منذ زواجنا.

- يا زوجتي العزيزة، أحمد هذا زاهد بحق، لقد عرفته في شبابي حين أرسلني والدي رحمه الله إلى قلعة أيوب زمن حروبه ليجنّبني الأخطار من جهة، ولأنهل من شتى أنواع العلوم على أيدي علماء ذاع صيتهم في ربى الأندلس من جهة أخرى، فكنت أغشى مجالس كبار هؤلاء من أمثال ابن الصافي في مجلس الطب والعلقمي في مجلس الفلك وابن العوام في الحساب والطنجي في اللغة والإشبيلي في الفقه... وهناك التقيت بأحمد بن عليّ التازي وصحبته طيلة ثلاث سنوات خبرته فيها وخبرني، وهو زاهد عن الدنيا بحق ولو أراد لتقلد من مناصب القضاء ما شاء، ولجمع حوله من الأتباع ما لا يعد ولا يحصى، ولكنه اختار لنفسه طريق المجاهدة والصبر وحبس النفس عن الشهوات حتى بات يلقب بين الطلبة بالزاهد، وهو من أذكى الناس وأجسرهم وأعلمهم فلا يغرنك تقشفه وهزاله.

ثم إني تحدثت إليه طويلاً حتى أقنعته بالعدول عن خلوته والحضور معي إلى سرقسطة بحجة إنقاذ البلاد والعباد من التشرذم والضياع، وأنه ليس في الثغر الأعلى كله من يصلح لهذا

المنصب إلاه، فلم أزل به حتى لان أخيراً وقبل المهمة وأنا أعرف أنه لها كاره، ولو كان كما تقولين محتالاً أو مغرضاً لما تردد ولو للحظة في القبول.

- معاذ الله أن أطعن فيمن يثق بهم مولاي، ولكنها الغيرة عليك يا زوجي الحبيب.

- أتفهم حرصك وغيرتك يا زوجتي الغالية. وأريد منك أن تفتحي أذنيك جيداً في الأيام القادمة، فإنّ جواري القصر وخدمه لا بد متكلمون في الأمر، وآراؤهم دون ريب لن تكون وليدة عقولهم وأذهانهم بقدر ما ستكون خلاصة ما يسمعونه ويتلقفونه من هنا وهناك. فإن نمى إلى سمعك شيء نكرهه، فينا أو في وزيرنا، فلا ترددي في إخباري لأعرف مصدره ومداه وأتبين صديقي من عدوي.

- بأمر مولاي الأمير. ومتى ستعلن قرارك على الملأ؟

- غداً الجمعة قبيل العصر، وليس سواك يعرف ما أنوي فعله فلا تبوحي به لأحد ولو كان أقرب المقربين.

- سرك في الحفظ والصون يا أبا أحمد.

(6)
الصدمة

كانت قاعة المسجد الداخلية قد بدأت تفرغ من المصلين الذين كانوا، كما العادة، يسعون لتقبيل يد المنتصر وتحيته بعد صلاة الجمعة في الساحة الخارجية. وكان أكثر أهل المدينة ينتظر هذا اليوم ليلقي نظرة على الأمير ويفوز ببعض الأعطيات، وكان البعض، وبخاصة أصحاب المظالم والحاجات من المعدمين، ينتظر ليلتمس لديه أو لدى خاصة أعوانه شيئاً من العطف والرعاية والإحسان والنصرة.

ولقد جرت العادة أن يبقى الأمير بين الناس من انقضاء الجمعة حتى صلاة العصر، وكانت هذه عادة أرساها هو حين استلم الحكم بعد وفاة والده. وقد طالما نصحه مستشاروه ووزراؤه بالتخلي عنها وبالصلاة كما بقية الأمراء والملوك في مساجد القصور وسط الحاشية والخدم والحراس، ولكنه أبى إلا أن يمضي عادته تلك، فلقد كان مقتنعاً أنّ حاكم البلاد لا بد له من ظهير شعبي قوي يؤيده

ولا سبيل إلى ذلك ما لم يخالط الناس ويبادلهم الهموم والأفراح. ولكنه كان يدرك في الوقت عينه أنّ التبسط للعوام سيفقده هيبته ويجرئ عليه الدهماء، لذا كان يحرص على الظهور بأبهى حلة يوم الجمعة في مسجد سرقسطة الكبير، محاطاً بكبار رجال دولته وسط الجنود المدججين بالسلاح، ثم يأمر بعض رجاله بتوزيع الصدقات على الفقراء والمحتاجين وإجراء الأعطيات لمن يرتضيهم هو أو من ينوب عنه في هذه المهمة، وربما رافق ذلك توزيع قطع الحلوى أو كؤوس الماء المحلى بالورد على الحاضرين، فكان هذا الاجتماع أشبه بعيد صغير يحرص على حضوره الصغار قبل الكبار. أمّا خطيب الجمعة فكان قاضي القضاة، إذ لم يكن إسماعيل يحب أن يخطب في الناس ولا يليق بأحد أدنى مركزاً من قاضي قضاة البلد أن يرقى المنبر بحضور هذا الحشد من علية القوم.

غير أنّ هذه الجمعة لم تكن كسابقاتها... فالجند في كل مكان، بل ويحيطون حتى بكل رجل من رجال الدولة الكبار الذين لم يفهموا ما الذي يجري ولماذا.

الأوامر صارمة ولا مجال للمناقشة ولا جدال ولا استثناء. أما المنتصر

فلم تكن تبدو عليه علامات القلق أو الريبة، فعلام إذن كل هذه التدابير؟ وعلى خلاف العادة أيضاً، فإنّ الحلوى والأعطيات كانت مضاعفة هذه المرة، فازدحمت ساحة المسجد الكبير الخارجية بالناس حتى ليظن الرائي أنه يوم فطر الناس وفرحهم.

في الوسط من كل هذا، كان رجل غريب بسيط يقف على بعد أقدام خلف الأمير.. لم يكن يتكلم مع أحد ولا يعرفه أحد أصلاً لا من كبار القوم ولا من عامتهم، فكانت الأعين ترمقه باستغراب ثم تشيح عنه غير مبالية به. وما هي إلا لحظات حتى ارتفع صوت المنادي يستدعي أسماع الحاضرين، وكان جلهم من رجال القصر وأعيان البلد ورجال الدين والحسبة والقضاء. وما إن عم الصمت حتى استقام سيد سرقسطة فوق كرسي معدّ له وتكلم بصوت هادئ... ولكنه ولمرة واحدة في تاريخ المدينة الطويل، كان هدوءاً يزلزل الأرض.

استهل المنتصر كلامه بمقدمات مقتضبة عن تاريخ دولته منذ أسسها جده وقوّى شوكتها والده حتى تولى هو زمامها وكيف نافسه عليها القريب والبعيد، ثم رفع عقيرته قليلاً ليسمع الجميع قراره بوضوح، دون أن يحيد قيد أنملة عن هدوئه العجيب:

" وهأنذا اليوم، صوناً لمصلحة دولتنا وحفاظاً على إرثها من الضياع، أعلن عزل الوزير أبي الفضل الصقلبي وتسليم مقاليد الوزارة لأبي علي أحمد بن علي التازي موضع ثقتنا ومستودع سرنا، وأدعو الجميع لإعلان الطاعة له والخضوع لأمره فأحكامه أحكامنا ورأيه رأينا ".

ثم عمّ الصمت للحظات حسبها الحاضرون دهراً، صمت لم يقطعه سوى حفيف ثوب خشن مرقع يرتديه رجل ملوّح البشرة طويل القامة تقدم من مكانه المتأخر ليقف عن يمين الأمير، وصوت همهمة فصليل من جهة الوزير المعزول أبي الفضل الذي سرعان ما سكن غير أنّ وجهه كان يتميّز حنقاً وغضباً وكأنّ الدماء به قد حبست وأنّ الليل البهيم به قد حل، فإعلان الأمير وإن كان مفاجئاً للجميع بل وصادماً، إذ لا أحد منهم يعرف أبا علي هذا، وبخلاف أنّ العادة في تسمية الوزراء لم تكن تجري على هذا النحو، غير أنه وقع كالصاعقة على رأس أبي الفضل فهو لم يعلم بهذا الأمر إلا اللحظة ولم يشعر قط بتدبيره رغم عيونه الذين يبثهم في جنبات القصر وحجراته، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أنه استهان بالأمير حتى غفل عن خطورته، وأنه ربما يفقد رأسه إن هو تهوّر في ردة فعله

بعد أن فقد منصبه. فكظم غيظه وكتم أنفاسه وإن كانت النار في صدره تستعر حتى لتكاد تلتهمه، وبركان أفكاره لا يكاد يلجمه سوى بريق نصال الرماح المحيطة به، وكاد لسانه أن يشي به وهو يقول لنفسه: " أنا لك يا إسماعيل، أقسم أني سأنتقم، ولتندمن أشد الندم حيث لن يفيدك لا صاحبك هذا ولا كل جنودك "!

بعد برهة الصمت الطويلة هذه، ارتفع صوت كبير التجار:

" السمع والطاعة لمولاي الأمير ولمن يثق به ويوزره ".

وأقبل منكباً على يد الأمير يقبلها ثم لثم يد وزيره الجديد على مضض وعاد للخلف، فتبعه الآخرون من الأعيان ثم رجال الدولة فالجند والعاملون في القصر ممن حضر الصلاة مع الأمير، وما هي إلا ساعة حتى كان الموكب يدخل قصر سرقسطة على غير الترتيب الذي خرج به منه قبل الزوال. وحين حاول أبو الفضل الانسحاب قبل دخوله أشار إليه قائد الحرس إشارة فهمها فلزم الموكب دون أن ينبس ببنت شفة.

تأهب حراس بوابة القصر الرئيسية وهتفوا بحياة أميرهم المنتصر إسماعيل، ومثلهم فعل العاملون في الباحة الرئيسية والحديقة

الخضراء وكل من مر بهم الموكب حتى بلغوا رواق الذهب حيث جلس الأمير إسماعيل على عرشه، أما في أدنى مقعد عن يمينه فقد جلس أبو عليّ الزاهد ثم توالى الحضور كل حسب رتبته، إلا أبو الفضل الذي ظل واقفاً حائراً مكفهر الوجه مقطب الحاجبين، لكنّ الأمير لم يشأ أن يطيل عليه حيرته هذه فأمر بإفساح المجال له ليجلس عن يمين الوزير الجديد. ثم أمر حاجبه بأن ينادي على كلّ موظفي القصر ثم مقدمي الجند ليجددوا البيعة له وليعلنوا السمع والطاعة لوزيره الجديد، واستقبل بعدها من قصده من كبراء المدينة ليعبّروا عن ولائهم بعد أن بلغهم الخبر الذي انتشر في جميع أرجاء سرقسطة انتشار النار في الهشيم.

مع حلول المساء، كانت أبواب قصر الجعفرية تغلق بوجه العامة، ورسل الأمير تنطلق إلى المدن المجاورة تستدعي ولاتها وأعيانها لتجديد العهد للأمير ثم لوزيره الجديد، أمّا الرواق الذهبي فكان مسرحاً لدوامة أخرى بعد أن انفض أكثر الحاضرين وخلا المجلس إلا من خاصة الخاصة، إذ نفد صبر أبي الفضل وطلب الإذن بالكلام، وشرع يبدي اعتراضه على عزله حتى قبل أن يسمع الإذن:

- مولاي! أهذا جزاء من أعان الأمير ونصح له وقاد الجيوش في حروبه دفاعاً عن العرش وسيده؟ لم أقترف خطيئة ولا أتيت ذنباً يا مولاي أؤاخذ عليه فبأي حق أعزل؟ ثم من هو هذا المتشرد الذي يأخذ مكاني في القصر وبأي شيء يفضلني؟ أيولى المجهول النكرة وأعزل أنا صاحب السبق والخبرة والمكانة والحسب، أينكر الأمير فضل أبي الفضل وكلّ صغير وكبير في سرقسطة يعرف من أنا ولا تجد منهم ناكراً لجميلي ولا جاحداً لفضلي...

وظلّ الوزير المخلوع يرغي ويزبد ساعة والمنتصر يكظم غيظه ويتظاهر بالهدوء حتى خارت قوى الرجل وجف حلقه فصرخ فيه الأمير بكل قوة وصرامة:

- يكفي يا أبا الفضل! والله لولا اعترافنا بجمائلك وأفضالك لكنا أمرنا بقطع رأسك منذ بدأت الكلام. أمِثلنا يُسأل بأي حق يفعل ما يفعل؟ أم حسبت نفسك سليل الملوك ووريث الأباطرة! من الليلة تلزم دارك وتعتزل الناس، وإياك أن تخرج منها إلا إلى مجلسي هذا، وإن بلغني أنك خالطت الناس فستكون عاقبتك أشنع مما تتصور.

أتمُنّ علينا بما قدّمت وأنت والله ما فعلته إلا لإرضاء نفسك وبلوغ غاياتك! أتخالني غافلاً عن الرشى التي تأخذها من كبار التجار، أو أنه لم يبلغني خبر اتصالك بالعامريين وإظهار الود لهم؟ قسماً لئن لم تنته يا صقلبي لأنكلن بك كما لم يفعل من قبل ملك بوزير. فاقنع بما أبقيتُ لك فإني واضع يدي على كل مالك ولست أبقي لك إلا ضيعة تقتات على خراجها وخادماً واحداً يقوم على شؤونك، فاقنع بذاك ولا تبرح دارك قبل أن أرسل في طلبك.

هنا انتقع وجه أبي الفضل، وخرج يصحبه اثنان من الحرس إلى داره فوجد رجال الأمير قد سبقوه إليها وأخلوها من جل متاعها وحملوا كل ثمين من صناديق الذهب والحلي المكدسة والبسط الملونة وأمين الخزانة إسحاق واقف يدوّن كل ما تتم مصادرته.

لاحظ الوزير المعزول أنّ إسحاق هذا قد همّ بالحديث ونظرات السخرية تفيض بما يُكنّ في سره، غير أنه لم ينتظر ليسمع المزيد من الإهانات والتشفّي فأشاح بوجهه ودخل بيته وأغلق الباب خلفه وهو لا يدري أين يدفن رأسه ولا كيف يُسكت كل الأصوات المتعالية فيه.

بعد ساعة كان إسحاق قد انتهى من جرد وجمع كل غال ونفيس وكان ما جمعوه قد ملأ ثلاث عربات أمر سائقوها بحملها إلى بيت المال، ثم صرفوا الخدم وأخذوا معهم العبيد ولم يتركوا للوزير المعزول غير رجل واحد يقوم على خدمته.

وعلى باب الدار وقف حارسان كالطودين الأشمين لا يتزحزحان ولا يبتسمان لمخلوق، بينما كان أبو الفضل في فراغ غرفته ووحشة ليله يصارع همّه ويواجه وحيداً أعاصير عاتية تعصف بذهنه وتكاد تقتلع رأسه من مكانه ولم يحجزه عنها إلا نوم غلب عينيه قبيل السحر.

(7)

محاولة الاغتيال

لم يكد يمر شهر على تعيين أحمد الزاهد في منصبه حتى وقعت حادثة اهتزت لها جنبات المدينة، بل الإمارة بأكملها، وكانت علامة فارقة في تاريخ سرقسطة التي كانت تمثل حتى الأمس القريب أكبر طوائف الأندلس بعد سقوط الخلافة الأموية في قرطبة.

كان سعيد، الرجل الثلاثيني وأحد بستانيي القصر، على موعد حميم مع خليلته درّة، ولم تكن درّة هذه إلا إحدى جواري مولاته الأميرة. وكان قد اعتاد التردد عليها خلسة تحت جنح الظلام بعد أن يهدأ القصر وينام. ولم يكن سعيد هذا فريد عصره ولا أوحد زمانه، فمثله بين الأسوار المنيعة كثير، وكانت بعض أخبار هذه الليالي الحمراء تتسرب كتسرب الماء وتدب كدبيب الفيلة بين العاملين، فيسمع بها جلّهم ثم يتظاهرون بالجهل والصمم، إذ أن إبراهيم بن يحيى كان يغضبه التسيب والثرثرة، وكان الطرد أقل ما يمكن أن ينال من يشتهر خبر نزواته وغزواته.

غير أنّ ليلة سعيد هذه لم تكن سعيدة كما كان يشتهي ويقدّر... فبعد أن تعطر واتزر بثوب أسود كالليل، تسلل خارجاً من مهجعه عابراً الممر المسقوف محاولاً قدر المستطاع تجنب الحديقة المضاءة بضوء القمر والقناديل المعلقة على أعمدة القناطر هنا وهناك لكيلا يلفت نظر أحد من الحراس، وكان له ما أراد حتى وصل إلى الدهليز الذي سيقوده إلى درته التي تنتظره.

كانت درة قد ضربت له موعداً في الغرفة الخامسة إلى اليمين من الممر المفضي إلى الجناح الغربي من القصر والمطل على الحديقة الأمامية، وهي غرفة مخصصة لشؤون الخادمات في النهار لا يقصدها أحد ليلاً إلا درة وصويحباتها على اتفاق بينهن.

وسلك سعيد الدهليز الذي ظنه خالياً، لكنه وخطوات قليلة تفصله عن غايته فوجئ بصوت الأمير يحدّث مرافقه وهو يعبر الممر من الجانب الآخر فلم يجد مناصاً من القفول بخفة محاولاً ألا يصدر صوتاً يلفت إليه نظر سيّده وولج ممراً جانبياً قليل الإضاءة. وأمام أحد الأبواب الغارقة في الظلام، ظهر له شبح ملثّم حاملاً بيده خنجراً مسموماً يريد أن يغرزه في جسد من لا ناقة له ولا جمل في الحكم

وشؤونه ظاناً منه أنه الأمير، إذ لم يكن الجاني يتوقع أحداً سواه في مثل هذا المكان وهذا الوقت من الليل.

لم تمض سوى لحظات حتى اكتشف الرجل أنّ ضحيته ليس هو الشخص المقصود، فصدرت منه شتيمة ضاعفت جدران الدهليز صداها ثم قرر أن يجري باتجاه الأمير لينهي مهمته، ضارباً بعرض الحائط كل أسباب الحيطة والحذر.

كان المنتصر سارحاً في أفكاره وهو يعبر ذلك الزقاق المضاء إضاءة خافتة، لكن أعاده إلى واقعه أنه لمح أشباحاً تتحرك في الظلام ثم سمع ارتطاماً فهمهمة. هنا تأهبت حواسه، ووقف ينتظر خادمه الذي كان يتبعه متأخراً عنه عدة خطوات كما دأب على ذلك كلما رافقه في الليالي الصافية، ولم يطل الانتظار إذ أقبل رجل باتجاه الأمير كأنه الثور الهائج وعيناه الحمراوان تقدحان بالشرر، وقفز رافعاً يده بخنجره ليهوي به على صدر المنتصر الذي حافظ على هدوئه بشكل عجيب، وربما كانت هذه ميزته الأقوى وصفته الألزم، وفي اللحظة الأخيرة مال بجسده ناحية الجدار تاركاً الرجل يهوي على الأرض لتضيع ضربته في الهواء، لكنّ هذا الأخير لم ييأس فنهض

مجدداً ليفرغ غيظه في خصمه الأعزل فما كان من الأمير إلا أن حاول تفادي الضربة مجدداً والقبض على يد المجرم في الوقت عينه، إلا أنّ الخنجر نال من ساعد الأمير شيئاً بسيطاً أحس معه أن النار لسعت جسده وأن لهيبها راح ينتشر فيه. هنا كان الخادم قد قفز على الرجل من الخلف طارحاً إياه أرضاً وهو ينادي على الحراس، وأعانه سيده ما استطاع في لجم الرجل وكبح جماحه، وما هي إلا لحظات حتى كان الرواق يعج بالجنود وقد تحولت ظلمته إلى قطعة من نهار ثم تم اكتشاف جثة سعيد البستاني، ثم ما لبث الجنود أن انطلقوا في مجموعات يجوبون القصر وردهاته بحثاً عن أي غريب أو مريب.

لم يطل الأمر حتى كان إبراهيم بن يحيى حاضراً يوزع أوامره يمنة ويسرة ويستحث من حوله في استدعاء الطبيب، فذراع الأمير التي مسها السكين المسموم كانت قد تورمت وتخدرت وبدأ لونها يميل إلى السواد، وبدأ المنتصر يشعر بالوهن فحملوه إلى مهجعه. أمّا قائد الحرس فكان يتصبب عرقاً ويصرخ في جنوده ويكيل لهم الشتائم والركلات، وضاعف أعداد الحراس على البوابات وحول غرف أزواج الأمير وأبنائه، لكن كل هذه التدابير لم تنفع في حبس الخبر داخل

أسوار القلعة، فمع ظهور أشعة الشمس الأولى لذلك اليوم الدافئ من آخر أيام الربيع كانت الأفواه تتناقل الخبر بحذر شديد وهمس ولمز، وما من ناقل إلا وكان يضيف إلى ما بلغه أشياء من تقديره ومخيلته. أما الوزير أبو علي فقد ظهر على غير وجهه المعهود، فقد كان صارماً وحازماً وأصدر الكثير من الأوامر ولم يراع قدراً لكبير ولا صغير، فأبقى أمير الحرس شدّاد بن لؤي في غرفة بمعزل عن بقية الناس وكلف شخصاً يثق به أشد الثقة بالقيام بأعماله حتى ينتهي التحقيق في الحادثة، وكذلك فعل بالقائم على القصر إبراهيم. ثم إنه أرسل من يأتيه بكل من قد تدور حوله شبهة التخطيط لهكذا عمل من قادة حاليين وسابقين وأمراء طامحين وجمعهم في إيوان واحد لا يخرج منهم أحد. أمّا الطبيب فقد أمر بإبقائه قرب الأمير ووضع معه اثنين من أقدم حرس القصر وأمرهم بألا تغفل أعينهم عنه وألا يسمحوا له بالخروج، وتولى بنفسه استجواب القاتل واستنطاقه ولم يوفر في ذلك جهداً ولا وسيلة. وما هي إلا أيام حتى كان ثلاثة من كبار القوم مصلوبين على أبواب سرقسطة وزج بغيرهم في السجن وعزل أكثر المسؤولين داخل القصر من مناصبهم.

أمّا القاتل فقد جُلد في ساحة المسجد الجامع على مرآى من الناس ومسمع ليكون عبرة لمن يعتبر ثم أقيم عليه الحد لقتله البستاني. وقد تبين أنه من رجال المنذر شقيق الأمير إسماعيل وقد أرسله بالتواطؤ مع مقدم الجند، قيس بن غالب، الذي غاظه من جهة تعيين الزاهد وزيراً وتأخره من جهة أخرى في التصرف بحزم وعدم الأخذ برأيه في شؤون الحرب مما فتح الباب أمام الطامعين من ولاة الإمارات المجاورة ليقلقوا راحة قائد الجند وأعوانه. وعلى هذا الوتر لعب المنذر فاتصل بابن غالب وما زال به حتى أقنعه بالانضمام إليه وتدبير محاولة اغتيال أخيه واعداً إياه بمزيد سطوة وسلطة وجاه، فأعماه الغضب وأغراه الطمع فكان في هذا هلاكه وبعض أعوانه.

(8)
نصيحة

بعد شهر من محاولة الاغتيال الفاشلة، ومع بزوغ شمس الصباح المبكرة المنذرة بيوم صيفي شديد الحر حتى على جدران قصر الجعفرية وتصميمه المميز الذي يحافظ على الحرارة المعتدلة بين جنباته والذي كان تحفة في البناء تضاهي قصور قرطبة وإشبيلية، كان المنتصر يستعد للخروج إلى مجلسه غير آبه بحالة الطقس وقسوته.

- أرى الأمير متحمساً للخروج اليوم كأنه الجواد متأهباً للمضمار!
- لقد طال جلوسي في الفراش يا أم أحمد منذ أن أصابني ذاك اللئيم بسكينه، وما عدت أطيق المكوث بين الجدران بينما الأحداث في الخارج تتسارع والمشاكل تتفاقم.
- لذلك لم يكد الطبيب يبشرك بنقاء جسمك من السم واستعادة عافيته حتى دبت فيك الروح مجدداً.
- هو كذلك يا عزيزتي.
- يبدو أنّ وزيرك يبلي بلاء حسناً في غيابك.

- وهل تسترق أم ولدنا السمع على مجالسنا؟
- معاذ الله أيها الأمير، ولكنكما تتحدثان بصوت مسموع دونما حذر من الجدران وآذانها، ثم إنّ مهجعي ملاصق للغرفة التي تلتقيه بها فأعي أشياء مما تدور بينكما كلما زارك بعد المغرب دون أن أتعمد ذلك أو أطلبه.
- لست عندي محل اتهام فلا تقلقي، ولكن صدقت، فلا ينبغي التساهل في مسائل الحكم وعرضها بصوت يسمعه كل من في الجوار، وخاصة إذا كان هؤلاء ممن يسهل شراء ذممهم وبيع ضمائرهم وولائهم.
- خيراً تفعل يا مولاي.
- أراك عشية إذن، وأظنني سأتأخر في العودة هذا المساء. وأنصحك أن تنبهي على ولدنا أحمد أن يلزم شيخه العرّاف فإنه على ما بدا لي حكيم نبيه. ومري أيضاً بمضاعفة أوقات الرماية والفروسية له ليشتد عوده ويقوى ساعده، فما ينتظره في قادمات الأيام ليس بالهين ولا مما يسر.
- أقلقتني أيها الأمير، هل هي حرب جديدة؟

- ومتى انتهت الحروب يا حسناء؟ إنها مستمرة منذ عشرات السنين، وما فترات السلم والهدوء إلا استراحات وجيزة سرعان ما تنقضي، وأرى الأندلس بعد الفتنة الكبرى في طريقها إلى مزيد تفكك وتشرذم، إلا أن تنهض لها إحدى الممالك فتجمعها كلها تحت رايتها وهذا ما لا سبيل لتحقيقه وإن تمناه كثيرون حباً أو طمعاً. وكذلك نصارى الشمال، لا يفتؤون يقضمون الأراضي الإسلامية كلما سنحت لهم الفرصة لذلك، وما أسهل أن يضعوا خلافاتهم جانباً ليتفقوا علينا، وما أصعب أن نضع خلافاتنا جانباً لنتصدى لهم، ونحن بين هذه النيران نحاول البقاء!

- نصرك الله يا مولاي وأقر عينك بولدك وإمارتك. ولكن قبل أن تخرج، هناك شيء أخير، إنه... إنه يخص...

- أفصحي يا أم أحمد فإني لم أفهم شيئاً.

- وزيرك يا مولاي.

- ما له، ألم تقولي إنه يبلي بلاء حسناً؟

- بلى يا مولاي، ولكن... لباسه... أعني...

- يا حسناء، إنه رجل عاقل راشد، وهو حر فيما يختار من الثياب،

المهم عندي هو بلاؤه في الحكم. ثم إني سبق وحدثته بشأن مظهره فاعتذر بأنه لا يريد أن يفتح على نفسه أبواب الفتن والشهوات فتركته وشأنه، فماذا في ذلك؟

- أدري يا مولاي، ولكن الخدم يتكلمون...
- ويح الخدم! وما شأنهم؟
- إنهم يهزؤون به وبثيابه يا مولاي، وقد سمعت ذلك بأذني من بعضهن عندما كان يزورك أثناء فترة نقاهتك فوبختهن ونهرتهن، ولكني لاحظت الشيء عينه عند غيرهن، فأمرت إحدى وصيفاتي الموثوقات بأن تأتيني بأخبار الخدم في عموم القصر وكيف نظرتهم للوزير فتبين أنهم لا يقيمون له وزناً ولا تقديراً يا مولاي. طبعاً في غيابه، أمّا في حضوره فليس أحد يجرؤ على الكلام، وقد علمتنا يا أبا أحمد أنّ الحكم من ركائزه أن يهاب المحكوم الحاكم، وهيبة الوزير من هيبة الأمير فراجعه في الأمر يا مولاي ناشدتك الله فإني أفضّل سكنى القبر على أن أسمع وأرى أحداً يهزأ بالأمير.

- حسناً يا أم أحمد، لك ذلك، وإن بلغك من الخدم ما تكرهين فلا تترددي في إخباري، وإن شئت أن تعاقبي منهم أحداً فلك ذلك.

وخرج الأمير إلى ديوانه، ولم يؤجل هذا الموضوع كثيراً، وفاتح به وزيره أبا عليّ وراجعه وأقسم عليه أن يرجع عن اختياره وأن يضع عليه من الثياب ما يليق بالحكم وهيبته ومكانته، ولم يزل به حتى قبل منه ورضي، وفي صباح اليوم التالي، كان الوزير أبو علي أحمد بن علي التازي يدخل على العاملين في القصر بثياب فاخرة لا يضع مثلها إلا الملوك والأمراء وعلية القوم، والناس من حوله مندهشون وقد عقدت المفاجأة ألسنتهم وفغرت أفواههم حتى إنّ بعضهم أنكره فلم يعرفه إلا بعد أيمان أصحابه أنّ الوزير هو هو وبعد أن سمع صوته وحديثه. وانطلق أبو عليّ إلى شؤون وزارته بحزم وعزم أكثر من ذي قبل.

الجزء الثاني

(9)
في بلاط ألفونسو

صمت طويل يخيم على القاعة الكبرى حتى ليخيل للحاضرين أنّ التماثيل تكاد تنطق وأنّ الرسومات التي تزين جدرانها تكاد تتكلم، ووجوه الحاضرين غارقة في تفكير طويل لا ينتهي فالمسألة حساسة للغاية وهي إمّا فتح مبين وإمّا مكيدة خبيثة، ولا سبيل لتبين حقيقة الأمر سوى المراهنة على صحته أو التضحية بالفرصة السانحة رجاء السلامة.

نظر ملك قشتالة ونفاره ألفونسو السادس إلى وزيره مجدداً ثم قال والشك ينضح من عينيه:

- هل تضمنه أيها الوزير؟
- لا أستطيع يا مولاي، فليست لنا تجارب سابقة معه ولا مع سيده، ولكن العرض الذي يقدمه مغر والرسالة التي معه تخص المنتصر دون ريب؛ فالختم ختمه والخط خط كاتبه وكذا الورق المذهب من نفس ما استعمله في مراسلاته السابقة معنا.

وإن كان يعني هذا شيئاً فهو أنّ الرجل قد باع سيده ويطمع في أن يخلفه على عرش سرقسطة بمعاونتنا.

- ولكن إن كان الأمر كذلك فلماذا لا ينشق عليه علانية ويعلن انضمامه للمنذر شرقاً أو لبني جندل غرباً وكلاهما لا يخفي عداءه للمنتصر ولا يكف عن حربه؟

- لا بد أنه يخاف أن يحل به ما حل بقائد جند سرقسطة قيس بن غالب حين تورط في تدبير محاولة اغتيال المنتصر قبل سنتين فانتهى به المطاف معلقاً على أبواب المدينة، ففضّل السلامة والحيلة والخديعة ليصل إلى مبتغاه على أكتافنا، فإن نجحنا نال ما يصبو إليه ولم يلطخ صفحته بخيانة أو غدر أمام أهل البلد، وإن فشلنا فلن يخسر شيئاً وسيحاول مجدداً بوسيلة أو بأخرى.

ثم إن المنذر لم يبق له من الأراضي والجند شيء يذكر، ولولا حماية ملك أراغون له لكان أخوه المنتصر بطش به منذ أشهر عديدة، فلم يعد يشكل خطراً على مملكة سرقسطة، إلا ما يمنّي به نفسه من استعمال سانشو راميز له وتوليته ما يستلبه من البلاد.

- أنت تميل إذن إلى تصديق الرسول!

- هو ذاك يا سيدي. وإن كنت لا أزال مرتاباً بعض الشيء.
- ولماذا لا يكون هذا فخاً من المنتصر ليستدرجنا لحربه في المكان والزمان الذي يريد؟
- المنتصر غارق في حروبه وهو في الآونة الأخيرة ينتقل من نصر لآخر، وقد دفعه هذا لأن يلقب نفسه بالملك عوضاً عن الأمير، ومد رقعة حكمه غرباً وجنوباً وعلى الرغم من ذلك لا يزال يؤدي الجزية التي افترضها عليه أخوكم يا مولاي قبل أن... تعرفون ما أعني، قبل أن يموت مسموماً، ولو كان يريد شراً لامتنع عن السداد ابتداء. ثم إنّ حليفه الكمبيادور لم يخبرنا بشيء، وهو وإن كانت علاقته بمولاي الملك قد فترت في السنوات الأخيرة غير أنه يستحيل أن يتسبب في أذية قومه وأهله. وعليه فلا أرى مصلحة لابن عواد في فتح جبهة جديدة يعرف أنها لن تكون في مصلحته وهو عنها في غنى وبخاصة وهو مقدم على حرب بني جندل.
- وماذا إن بعثنا إلى المنتصر نكشف له حقيقة ما يجري ونطالبه في المقابل بزيادة الضريبة السنوية، هل تراه سيستجيب؟
- لا إخال ذلك يا مولاي، فإنه قد استقرت له الأمور في الآونة الأخيرة

وقويت شوكته، فمن السهولة عليه بمكان أن يتخلص من حليفه سراً أو يدبّر له مكيدة فيتقي شره دون الحاجة إلينا ودون تكليف خزينته المزيد من الأعباء.

- فليكن إذن. دوّنوا كل ما جاء به الرسول من تفاصيل خطة الجيش ومكوناته وانسخوا رسالة المنتصر إلى ملك طليطلة ثمّ دعوه يوصلها إليهم. وأرسلوا إلى قادة الجند ليجهّزوا أنفسهم فإننا سنضرب عصفورين بحجر واحد، فليست فرصة كهذه تسنح كل يوم.

(10)

حرب بني جندل

يمد الربيع ثوبه الأخضر على السهول والجبال وينشر عطره في الأرجاء. الطيور تسرح وتمرح شادية بألحانها العذبة ناشرة الفرح والسرور في كل زاوية وفوق كل غصن. بالمقابل كانت دنيا البشر تغصّ بصنوف شتى من الغضب والحقد والكيد ورسائل الموت مما لا يترك للطبيعة الخلابة مكاناً ولا كلمة في حياة الناس.

كانت لحظة حاسمة في مسيرة حكم المنتصر إسماعيل، فلقد استطاع أخيراً الوقوف على قدميه وتثبيت ركائز حكمه بعيداً عن استغلال الوزراء له ومن خلّفهم أبوه في ديوان الحكم من الدهاقنة والعمال. وها هو الآن ماض في طريقه إلى مجد جديد وسؤدد تليد ستشهد عليه السنون والبشر والحجر، وما كان هذا ليكون لولا صديقه الزاهد ووقوفه إلى جانبه، وربما كانت محاولة الاغتيال الفاشلة التي تعرض لها قبل سنتين سبباً طيباً للتخلص من كثيرين ما كان يقدر عليهم لولاها.

راح المنتصر يسترجع محطات حياته في ذهنه وهو ينظر إلى مياه نهر شلون قاصداً قلعة أيوب، وقد ذكّره النهر والطبيعة الخلابة كيف عبر هذه الأرجاء خلسة قبل ثلاث سنوات طلباً لمساعدة الزاهد، وكيف أنه عاد اليوم ليسير في جنباتها معززاً مكرماً دون خوف أو وجل بعد أن خلع أخاه يوسف دون جهد يذكر، وتمنى لو أنّ الأمر ذاته يحصل له مع أخيه المنذر شرقاً، ذاك الذي استعاد لاردة بعد أن كان طرد منها من قبل، وهو يعلم حق العلم أنّ بإمكانه قتل أخيه والاستراحة من هذا العناء كله رغم الحماية التي ضمنها له شرقاً سانشو راميز ورامون برنجير، ولكنّ عهد أبيه ورابطة الدم التي تجمعهما يمنعانه عن مثل هذه الشدة والبطش، غير أنهما لم يمنعا أخاه عن محاولة البطش به! لكن لا بأس، فليقنع بما بقي له من ضياع وأعمال قليلة، وهو ما دام عالقاً بين أنياب أراغون وبرشلونة وسرقسطة فإنه لن يذهب بعيداً أبداً، وربما يأتي يوم ينفد فيه صبر الحليم فينزل به ما يستحقه من العقاب، أو أنه سيذوق طعم العفو مرة أخرى ويحظى بدار واسعة لا يغادرها وخادم يخدمه كما انتهى المطاف بأخيهما يوسف؟

كان المنتصر يرتدي ثوباً حريرياً أبيض اللون مطرزاً بخيوط الذهب والنقوش القرمزية، غير أنّ يديه على خلاف ثوبه ملطختان بدماء تزداد يوماً بعد يوم، وهل من ذلك مفرّ وكل إمارة في الأندلس من الثغر الأعلى شمالاً إلى الجزيرة الخضراء جنوباً طامعة بأخواتها؟

ها هو ذا عائد من المواجهة التي طال انتظارها مع بني جندل، أعدائه وأعداء أبيه من قبله. فلقد أرسل إليهم رسالة شديدة اللهجة تطالبهم بالتنازل له عن مدينة سالم ووادي الحجارة وإلا فإنه سينتزعهما بحد السيف. وكما توقع فإن رسالته هذه لم تلق قبولاً في قصر طليطلة فاختاروا الحرب على الموادعة والسلم، وهي حرب كان يسعى إليها منذ أشهر وقد أعد لها عدتها فجمع قواته عند قلعة أيوب التي نشأ فيها وترعرع استعداداً للمواجهة الحاسمة.

كان يدرك أنها مواجهة لن يغفل عنها ألفونسو بالطبع ولن يعجبه أن يخرج أحد منها قوياً منتصراً، ولكن حتى هذا فقد حسب له إسماعيل حساباً إذ أرسل إلى بلاط قشتالة من الذهب والسلاح والهدايا أكثر مما تم الاتفاق عليه من قبل مع سانشو ملك النصارى الأسبق مقابل أن يكفوا أذاهم عن الديار الإسلامية فيضمن بالتالي

عدم تدخلهم. أما خصومه فقد رأى أن يواجههم على مشارف مدينة سالم بعد أن قسّم جيشه إلى أربعة أقسام: ثلاثة للهجوم ورابع للمباغتة خلال سير المعركة. وهذا ما كان، وكانت المواجهة بعد أسابيع قليلة من إرساله خطابه العدواني إلى غريمه عبد الملك صاحب طليطلة والذي كان معتاداً على المناوشات الصغيرة مع جيرانه وانتزاع قلعة هنا أو بلدة هناك، ولكنّ الجيشين لم يلتقيا في معركة حقيقية منذ أمد بعيد، وخصوصاً أنّ كثيراً من حروبهما كان يتم بالوكالة عن طريق إغداق المال على ممالك الشمال لتتولى مهاجمة خصومهم بالنيابة عنهم. أمّا هذه المعركة فقد كانت تحتاج إعداداً طويلاً ولم تكن الأسابيع الثلاثة بالكافية لإتمامه، وألفونسو ملك قشتالة طامع في كل شبر من الثغر الأوسط وكان بالفعل قد قضم منه الكثير، فليس من الوارد عند كبير بني جندل وملكهم الاستنجاد به في هذه الحرب.

جرّب عبد الملك حظه مع بني الرزين دون جدوى، فهؤلاء يفضّلون الحياد والنجاة على ركوب الأخطار وطلب المجد. وبقية الإمارات بعيدة عن أراضي سرقسطة وغير مهتمة بحرب لا تعنيها مباشرة،

ومن كان منها معنياً كان عنده من المشاكل ما يمنعه من إنجاد بني جندل في مواجهة بني عواد. لقد كانت حرباً غير متوقعة فرضها المنتصر بشروطه في وقت حرج ولا بد من خوضها، وهي أشبه بالانتحار ولذا كان همه الأول كيفية الخروج من هذا المأزق بأقل الخسائر الممكنة من دون استسلام ولا تفريط.

دارت المعركة على مشارف مدينة سالم، وجرت كما خطط لها إسماعيل ومجلس حربه بالتفصيل؛ بدأت بغارات الخيالة والكر والفر ثم تدخّل رماة الأسهم بوبل كثيف من النبال ثم هجوم أقوى في الوسط ثم تقهقر متعمد يتصنعون من خلاله الخسارة مما أخرج حامية المدينة من تحصيناتها فأصبحت لقمة سائغة لجناحي جيش سرقسطة وكانت الضربة القاضية بدخول الفرقة الرابعة بقيادة الوزير أبي عليّ الزاهد في إغارة مباغتة من الخطوط الخلفية فأوقع بالمدافعين عن المدينة أشنع هزيمة وقتل منهم الآلاف ولم يعد أمامهم سوى التسليم المذلّ. أما عبد الملك فقد تحصّن في وادي الحجارة آملاً أن يكتفي المنتصر بالنصر الذي قد حصل له، غير أن الاكتفاء لم يكن في نية سيد سرقسطة فتبعه حتى القلعة التي تحصن

بها وضرب عليها حصاراً لم يطل إذ لم يعد بمقدور صاحب طليطلة الصمود بعد أن تمزق جيشه وتخلفت الممالك المجاورة عن نجدته ما اضطره في نهاية الأمر للإذعان وتسليم الحصن لابن عواد الذي أصبح على مرمى حجر من مجريط بوابته لطليطلة عاصمة خصومه من بني جندل وقلب الثغر الأوسط من الأندلس.

كان إسماعيل يسترجع كل هذه التفاصيل في طريق عودته مظفراً من هذه المعارك وهو ممتلئ بنشوة النصر وزهو الظفر. ولم تكن عودته إشفاقاً على غريمه وإنما استعجالاً لإتمام أمر آخر، فلقد كان على موعد جديد مع السطوة والمجد، إذ أنه أغرى، أو بالأحرى أكره، أبا بكر العامري صاحب بلنسية على تزويج ابنته لولده أحمد ولقبه بالمستعين، إذ أن بلنسية كانت عرضة لمطامع بني جندل من جهة وأمير برشلونة من جهة أخرى، إضافة إلى أن بني عامر مقاتلون أشداء فهو بهذا الزواج يضمن تبعية أراضيهم له ويضم قوّتهم إلى قوته ويلجم أطماع خصميه اللدودين في هذه الأرض البديعة والبوابة البحرية المهمة.

(11)

الكمين

وصلت مقدمة الموكب المظفر ناحية بلدة الحامة على بعد أربع فراسخ من قلعة أيوب، وكان يعرف أن فيها عين ماء حارة يقصدها الناس للاغتسال والاستشفاء، فقصدها رفقة حرسه وقادة جنده ليريح جسده قليلاً من تعب السفر وليتيح لكتائب الجند المتأخرة من المشاة والمصابين وغيرهم مزيداً من الوقت ليلحقوا ببقية الجيش. هناك أخذ يتذكر أيام صباه حيث لم يكن يحمل من هموم الدنيا شيئاً يذكر، ولا كان يدري عن الحرب إلا قصص البطولات والفرسان الأشداء. قصص لم تتضمن آلام الجرحى ولا بكاء الثكالى ولم تحكِ خيانات الأصحاب ولا اقتتال الأشقاء وما كانت تذكر عن تكاليف النزاعات المالية والسياسية والبشرية شيئاً قط. أترى كان الآباء يخدعون أبناءهم بهذه القصص أم تراهم كانوا يزرعون فيهم بذور الشجاعة والإقدام؟

لم يدر إسماعيل ما الذي دفع بهذه الأفكار إلى رأسه. حاول صرفها

فلم تنصرف، أخذ يحدق في السماء تارة وفي الصخور وبخار الماء تارة أخرى لكنّ التساؤلات ما فتئت تزداد في رأسه وتفسد عليه لحظات راحته فلم يجد بداً من إنهاء هذه الاستراحة سريعاً واستكمال المسير.

بعد هنيهة كان الموكب يعبر وادياً بين جبلين أجردين، وسرعان ما عادت الابتسامة التي فارقت وجه المنتصر في عين الماء الساخن إليه وهو يتخيل كيف سيدخل سرقسطة بعد أيام قليلة، وكيف سيستقبله الناس على جنبات الطريق مهللين ومعظمين، بل إنه بدأ يفكر بالمدينة التالية التي سيحرك إليها جنوده ويضع عليها يده، ولم يخرجه من خيالاته وأحلام يقظته إلا سهم مسرع مر من أمام وجهه فاستدار وجلاً ليرى مئات النبال تتطاير من بين صخور الجبال المحيطة بهم لتنهمر عليه وعلى جيشه كالمطر الغزير، وسرعان ما أخذ الجنود يجرون في كل اتجاه ابتغاء الفرار والنجاة، ودبت الفوضى والذعر في صفوف الجيش الذي أخذ على حين غرة.

بعد لحظات التذبذب والتشتت هذه راح قائد الكتيبة المكلفة بحراسة المنتصر يصرخ في رجاله ويوجه لهم أوامره بحزم وسرعة، وسرعان ما تجمعت ثلة منهم حول سيدهم محاولين إنقاذه ودرء السهام عنه ما استطاعوا، لكنّ فلول الهاربين خارج الوادي اصطدمت بحاجز من الخيالة المدججين بالسلاح والدروع المعدنية وشاراتهم الزرقاء وراياتهم الصفراء ذوات الصلبان، إنهم جنود ألفونسو السادس!

استيقظ الجميع على هذه المفاجأة المرعبة بعد أن تمزق الجيش وسقط الكثير ما بين صريع وجريح، وأطبقت عليهم كتائب الإسبان من دون سابق إنذار. وعلى الرغم من أنّ تعداد جيش المنتصر كان يفوق تعداد هؤلاء إلا أنّ حالتهم المعنوية كانت في الحضيض بينما كان القشتاليون في أفضل حالاتهم الجسدية والمعنوية.

التحم الجنود وسالت الدماء وأثخنوا في المسلمين حتى أيقنوا بالهلاك، فخارت قوى جماعات منهم بينما استماتت جماعات أخرى واستبسلت في دفاعها عن حياتها ووجودها وملكها، وعندما بدأت الشمس تميل باتجاه الغرب حدث ما لم يكن في الحسبان، إذ

وصلت مؤخرة جيش سرقسطة يقودها الوزير الزاهد وكانت قد تخلفت عن بقية الجيش لسبب ما، فشحذ همم جنوده وحرضهم على القتال ثم اقتحم بهم الصفوف حتى شتت شمل الإسبان وما لبث أن استنقذ صاحبه إسماعيل ومن بقي حوله من حرسه، وما بقي منهم إلا قليل، فوجده قد أصيب بجراحات عديدة فحمله بعيداً وشدد الحراسة من حوله وأحاطه بالحماية حتى أصبح وكأنه وسط قبة من الدروع والحديد والرجال الأشداء، ثم التف مجدداً يطارد جنود ألفونسو ويمعن في قتالهم ومطاردتهم. هنا دبت الحماسة في العسكر المهزومين فاستجمعوا ما بقي من قواتهم وقواهم وتبعوا الوزير في قتاله وسمعوا له وأطاعوا حتى دارت الدائرة على من نصبوا الكمين فحلت بهم هزيمة نكراء بعد أن كانوا قد أيقنوا بالنصر المبين. ومع نهاية النهار كان القشتاليون قد خسروا كل شيء، وقتلت نخبة من نجبائهم وعلى رأسهم غونزالو أمور قائد جيش ألفونسو ويده اليمنى وغارسيان أحذق مستشاريه في شؤون الحرب والقتال. وقد غضب ألفونسو لهذه الخسارة أشد الغضب، وأقسم لينتقمن من سرقسطة وجيشها أيما انتقام، ولم يخفف أحزانه ويهدئ من روعه

إلا انتصاره على جيوش عبد الملك في الثغر الأوسط وانتزاعه الكثير من الحصون والقلاع من بني جندل ودخوله مجريط دخول الفاتحين، فصار على أعتاب طليطلة مركز المملكة التي لطالما حلم، كما أبوه من قبله، بضمها إلى حكمه وسلطانه، فقد استغل فرصة الحرب التي علم بها قبل وقوعها بين المسلمين ليشن عليهم الغارات إذ أراد التخلص من ألد أعدائه في وقت واحد فكان له ما أراد غرباً بينما تعثرت آماله شرقاً.

أمّا المنتصر، فقد دخل سرقسطة بعد أسبوع مثقلاً بالجراح وبالضربة القاسية التي تعرض لها في الكمين، واستقبلهم الناس بوجوم وحزن شديدين، فلا أفراح ولا زغاريد ولا احتفالات ولا شيء مما كان يحلم به أثناء عودته من صولته في مملكة بني جندل. وفي طريق عودته، حكى له وزيره كيف أنه لاحظ حركة مريبة على الطريق إذ استغرب خلو المنطقة من المسافرين والمزارعين والتجار، وعدم تواصل أبراج الحراسة ما بين الحامة و ثيتينا معهم فتأخر عن الجيش ليرسل عيونه في البلدان من حوله فلم تلبث أن جاءته بالأخبار عن تحركات للقشتاليين في المنطقة ووصولهم قبل

يوم من موعد مرور المنتصر بجيشه فأغاروا على الحصون الصغيرة ونقاط المراقبة فعطلوها وكمنوا حول الوادي مستغلين طبيعة الأرض بجبالها وأشجارها وصخورها ليأخذوا المسلمين على حين غرة، فلما اتضحت عنده صورة الموقف أسرع لينذر صاحبه غير أنه وصل متأخراً فكان ما كان.

(12)
في بلاط المنتصر

كان الكمين الذي تعرض له المنتصر نقطة فارقة في حياته، فلقد رأى الموت بأمّ عينيه وخسر كثيراً من جنوده وفقد قائد حرسه وأحد أبرز معاونيه عبد الله بن أحمد القيرواني، والأهم من ذلك أنه خسر أيضاً من هيبته فلن يستطيع بعد اليوم أن يفرض سطوته على الممالك المجاورة، إلا أن يخوض المعارك مجدداً ويربط اسمه بانتصارات جديدة تمحو ذكرى الكمين الأليمة، ولكن جشيه ممزق مكلوم فأنّى له ذلك؟

كان إسماعيل قد عاود الحضور إلى بلاطه كل صباح بعد ما التأمت جراحه وزال عنه الخطر. وفي صبيحة ذلك اليوم كان الوزير الزاهد يستأذن الأمير في أن يخلو به لأمر هام، فصرف المنتصر الحضور من المجلس ليستمع لوزيره، فشرع هذا الأخير بالكلام والأمير شارد البال مشتت الذهن:

- أرى سيدي مهموماً ولا أظن ذلك إلا بسبب ما تعرض له قبل أسابيع.

- هو ذاك يا أبا عليّ، هات ما عندك.
- الناس ساخطون يا مولاي وقادة الجند متذمرون، ولا أرى لنا حلاً إلا بمعاودة الغزو وكسب المعارك وانتزاع القلاع والحصون، فإن فعلنا عادت لنا هيبتنا وخشيَنا الناس وإلا فإني أخشى أن تزداد الأمور سوءاً يوماً بعد يوم.
- ومن سنهاجم يا ابن علي وقد نالنا من الضر ما نالنا؟ وكيف نغزو وجنودنا لم تندمل جراحهم وقائدهم خالد بن عبد الله لم يعوّض بعد النقص الذي حل بنا في العدد والعتاد؟
- تعرفون يا مولاي أن القحط قد ضرب قرى الشرق والشمال، والناس هناك ناقمون لعدم مدنا يد العون إليهم. وقد بلغني يا مولاي أن أخاكم المنذر يجهز قافلة لمد هذه القرى في الثغور بالمؤونة والكلأ ليكسب ولاءهم ويزيد الفجوة بينكم وبينهم. وقد جاءتنا العيون بخبر خروج رسول المنذر إلى ملك أراغون حاملاً إليه خمسة آلاف دينار ذهباً لكي تمر القافلة عبر أراضيه فلا تتعرض لها قواتنا.
- وما علاقة هذا بما كنا في صدده يا أحمد؟

- أقترح يا مولاي أن نغير على القافلة، ولا أظن حاميتها ستكون بالحجم الذي يعيينا على رغم ما بنا. ولو شئت خرجت إليهم بفرقة الجند الذين كانوا معي في غزو أراضي عبد الملك فهم لا يزالون على أهبة الاستعداد ولم تثخنهم الجراحات كما حدث مع بقية الفرق فنغنم القافلة وما فيها ونحقق نصراً سهلاً ننال به شيئاً من مرادنا.
- وأمان الأراغون للمنذر، ماذا تصنع به؟
- فكرت في أمرين يا مولاي، الأول أن نرسل إلى ملكهم الجديد بيرو الأول، نبارك له وراثته عرش أبيه سانشو راميز ونعرض عليه ضعف ما أعطاه المنذر ليخلي بيننا وبينهم فنغير عليهم في أراضي حلفائهم فتكون لهم ضربة مؤلمة. وفي الوقت عينه نرسل إلى ألفونسو نعرض عليه هدنة جديدة نتنازل له بموجبها عن وادي الحجارة ونجدد العهد الذي بيننا وبينه ونعلمه بأننا سندخل أراضي الأراغون في مهمة سريعة فلا يرتاب في أنّا ندبّر له مكيدة ما.
- كيف نخلي له وادي الحجارة ولم يكد يمر شهر على استيلائنا عليها يا أبا علي؟ أتعي حقاً ما تقول؟

- أعي ذلك وأفهمه جيداً يا مولاي، ولكن ألفونسو دخل مجريط ووطد فيها وجوده ودعّم أسوارها وحصّن قلاعها وأمدها بكل ما توفر له من جنوده وجنود حلفائه من نافاره وليون وحتى من النورمانديين والإنجليز. ومجريط كما يعرف مولاي على مسيرة يومين من وادي الحجارة، ونحن جد بعيدين وليس بإمكاننا نجدة حاميتها إن هم هاجموها، فلنبادر لحقن دمائنا وتجنيب قواتنا المزيد من الخسائر ولنعمل على تحقيق المكاسب المضمونة ريثما نسترد عافيتنا. هذا هو الرأي عندي يا مولاي فانظر ماذا ترى، ولكن قافلة المنذر ستنطلق عما قريب، فالعجلة العجلة يا سيدي.
- وماذا سيقول الناس يا أحمد؟ باع المنتصر تضحياتهم ودماءهم مقابل لا شيء؟ ليس هذا برأي يا وزيري المؤتمن.
- الناس يا مولاي اعتادوا على تحالف مختلف ملوك الطوائف مع ملوك الاسبان لدرء خطرهم. صحيح أنهم يعترضون كلما حلّت بهم مصيبة أو تولاهم ملك جديد، ولكن اعتراضاتهم لم تبلغ أبعد من حناجرهم، وما دامت لم تحرك سيفاً أو تحرض قائداً

فلا يُخشى منها. ويكفيهم أن نغدق عليهم بشيء من حمولة القافلة التي سنصادر ليكفوا أذاهم ويغلقوا أفواههم بل ولتلهج ألسنتهم بالثناء على مولاي.

- حسناً يا أبا علي، افعل ما تراه مناسباً ولكن اعلم أني لا أريد سماع أخبار هزائم أخرى.
- اطمئن يا مولاي، سأدبّر هذا الأمر تدبيراً محكماً.
- أرجو ذلك.

هناك أمر آخر يا مولاي.

- ما هو يا وزيري؟
- قائد حرسك يا مولاي، عبد الله بن أحمد رحمه الله وأحسن إليه، لم تعيّن بعد من يخلفه، وأرى أنه أمر لا يحتمل مزيداً من التأخير فهو مما يعرض أمنكم وسلامتكم للخطر.

أدري أنه منصب لا يجوز توكيله إلى أيّ كان، بيد أنّ بقاءه شاغراً سيغري بكم مبغضيكم يا مولاي وربما تسبب بما لا تحمد عقباه. ما رأيكم بسحبان الداودي يا مولاي أو جندل القرطبي؟ أو حتى عكرمة بن إدريس يا سيدي، وهو رجل من الأشراف وفارس من

الشجعان وإن كنت أرى سحبان أكفأهم لهذا المنصب. الرأي رأيكم دون شك ولكن لا بد من اختيار شخص أهل لحمل هذه الأمانة الكبيرة والمهمة العظيمة في أقرب وقت.

- سأنظر في شأن من سميت ثم أختار أحدهم يا وزيرنا، وإن كنت قد ترددت في الاختيار بين اثنين من غيرهم، لكن إن كنت تثق بهؤلاء فلا بأس بتعيين أحدهم قائداً لحرسنا.

مرت بعد ذلك ساعة من الصمت لم يتكلم فيها الوزير، وكأن المنتصر انتبه من شروده ليجد صديقه لا يزال واقفاً أمامه محدقاً في الأرض مرة وبالعرش أخرى، فاستغرب ذلك وبادره بقوله:

- أراك متردداً يا أبا علي، ما الذي طرأ عليك؟ أراودك الشك فيمن أسميتهم أم ارتبت في خطتك بهذه السرعة؟
- ليس الأمر كذلك يا مولاي، ولكنه شيء يتعلق بالقصر.
- القصر! ما ذا تقصد يا أحمد؟
- إنه إبراهيم يا مولاي.
- وماذا فعل إبراهيم، لا تقل لي أنه اتصل بالمنذر أو بالإسبان.

- ليس ذلك يا مولاي. أعرف مدى حبك لإبراهيم وثقتك به، وإنه لجدير بها، ولكن أخشى أنه قد تقدم به العمر فلم يعد قادراً على التحكم بالأمور داخل الجدران كما ينبغي.
- وهل رأيت منه ما يريبك أم أنه مجرد إحساس طارئ؟
- رأيت يا مولاي... لا شيء يدعو للقلق فإنما هي هفوات صغيرة وتقصير من الخدم هنا وهناك، وبعض أخبار وشائعات بدأت تتسرب خارج الجدران، وهو قائم على القصر منذ زمن جدكم سليمان، ولولا أنه بدأ يفقد هيبته ودقة ملاحظته لما تجرأ الخدم على التهاون في واجباتهم وتخطي حدودهم. والرأي عندي أيها الأمير أن تعزله وأن تختار من رجالنا الشبان الأذكياء من يصلح لهذه المهمة، فهذا أجدر بتدارك الخلل وألجم لمن تسول له نفسه من الخدم أن ينسى مكانته ووظيفته أو أن يطيل لسانه ويتكلم، داخل القصر أو خارجه، بما ليس من شأنه.
- ومن تقترح لهذا الأمر يا أحمد؟
- إسحاق الرومي يا مولاي، إن رضيتم به بالتأكيد.
- إسحاق الرومي! أما وجدت من العرب أو البربر من تستعمله حتى

وقع اختيارك على هذا الرومي، والذي لا نعرف أصله ولا نسبه وليست له قبيلة ينتمي إليها ولا باع في الدولة فنطمئن إليه.

- أفهم ذلك يا سيدي، وهذا بحد ذاته رسالة إلى مختلف القبائل والعصبيات بأن مولاي المنتصر ليس رهينة عندهم ويستعمل من شاء من رجاله حيث يشاء دون إذن أو منّ أو رضا من أحد.
- حسناً حسناً، افعل ما تراه مناسباً ولكن ترفق بإبراهيم بن يحيى فلقد كان أميناً متفانياً في عمله مخلصاً في ولائه.
- أمر مولاي.

وانطلق الوزير ليجري ما اتفق عليه مع الأمير.

أمّا إبراهيم فقد تلقف الخبر بحزن شديد، فهو ليس بعد شيخاً طاعناً في السن فيستغنى عنه، ولم يخلّ بأداء واجباته فيعزل عن وظيفته، ولكنها رغبة صاحب القصر وله عليه حق السمع والطاعة، وإن كان ليحزنه الجلوس في بيته كالرقعة البالية بعد أن أمضى نصف عمره في خدمة بني عواد.

وقبل أن يمضي، طلب من القائم الجديد إذناً بالسماح له بجولة

أخيرة داخل جدران القصر يودّع فيها ساكنيه ويملأ عينيه من هذا المكان المفعم بالذكريات فإنه، على الأغلب، لن يراه بعد اليوم.

أذن له إسحاق الرومي وقد علت وجهه ابتسامة ساخرة. لقد أصبح السيد المطاع وهو الذي لم يمض على تعيينه في القصر غير عام بناء على توصية من الوزير الزاهد نفسه. لم يكن ليتخيل بلوغ هذه المنزلة يوماً ولو في أحلامه، ولكنها الحظوظ والأقدار.

أمّا ابن يحيى، فقد مضى لشأنه، ولكنه وقبل أن يفرغ من جولته الوداعية بقليل، استوقفه في أحد الأروقة شخص ذو شأن في البلاط وأسرّ إليه بأمر من الأهمية بمكان...

(13)

في بلاط جناح الدولة

لم تعمّر إمارة بني القاسم في هذا الثغر من الأندلس طويلاً إذ سرعان ما التهم أراضيهم الكمبيادور شرقاً وبنو جندل غرباً وحتى العامريون جنوباً ولم يأمنوا إلا جانب بني رزين شمالاً، لا لقناعة هؤلاء وإنما لسياستهم التي اعتمدوها بتجنب الصراعات والاحتماء بالآخرين. وها هو عضد الدولة كبير بني القاسم وأميرهم يجد نفسه حاكماً على ألبونت وما جاورها من الأراضي ولا يدري ما ينتظره في قادمات الأيام.

كان الأمير مجتمعاً بقادته ومستشاريه في قلعة ألبونت يتناقشون فيما يتوجب عليهم فعله بعد أن استولى ألفونسو على مجريط، فلا بد أنه سيعمل على انتزاع طليطلة قبل أن يستعيد بنو جندل أنفاسهم ويحاربوه لاسترداد أراضيهم. وكان من الواضح أن طليطلة لن تصمد طويلاً، وبالتالي سيعمد عبد الملك إلى نقل عاصمته جنوباً، وربما يغريه هذا بالهجوم على بني القاسم وسلبهم ما تبقى

لهم بغية تحقيق نصر يعيد له بعض هيبته التي مرغها القشتاليون من جهة وبنو عواد من جهة أخرى بالتراب.

كانت أصوات المجتمعين تعلو تارة وتحتدم ثم ما تلبث أن تخمد فيعمّ الصمت مدة قبل أن يعاودوا مدارسة الأفكار مجدداً، فليس الأمر بالسهل، والقرار الذي سيتخذونه سيحدد مصير دولتهم دون شك، وهم يدركون حساسية الموقف جيداً، بل كانوا كالغريق الذي يبحث عن قشة يتعلق بها رجاء النجاة.

اقتحم عليهم مجلسهم الحاجب جعفر بن عياض الفهري ثم انتحى بالوزير عبد الله بن حسان وهمس له بأمر جعل قسمات وجهه تتغير فقد تقطب جبينه ولمعت عيناه، ثم انصرف الحاجب والوزير على هيئته لا يتحرك ولا يتململ. ناداه عضد الدولة مستفهماً:

- ما الخطب يا ابن حسان؟
- هناك رسول بالباب يا مولاي، ويبدو أنه يحمل رسالة على قدر عال من السرية والخطورة!
- تريد أن تنصرف لتسمع ما عنده؟

- يقول إن الأوامر التي لديه تقضي بتبليغ الرسالة لمولاي مباشرة.
- حسناً، هلموا بنا إلى الديوان لنسمع ما لديه ثمّ نستكمل مشاوراتنا بعد الزوال، إذ يبدو أننا بحاجة إلى مزيد من الوقت للنظر في أمرنا.

وانتقل القوم إلى ديوان عضد الدولة ثم أمر الحاجب ليدخل الغريب القادم بالرسالة المستعجلة المزعومة.

كان الرجل أصفر الوجه قصير القامة دقيق الذقن تشع عيناه بالمكر والدهاء. حياه باحترام بادي التصنع مبالغ فيه ثم شرع يقول:

- لو يأذن لي سيدي عضد الدولة.
- هات ما عندك.
- لقد أرسلني مولاي بما فيه صالحكم وفوزكم. إنه يعرض عليكم مهاجمة مدينة ركانة والاستيلاء على قلعتها وضمها إلى أراضيكم، وهو سيسهل لكم هذه المهمة ويهيئ لكم أسباب نجاحها. بالمقابل، فإنه يطلب منكم نصف ما في مخازن القلعة من السلاح والدروع خمسة آلاف دينار يؤدى نصفها حين موافقتكم والنصف الآخر بعد استيلائكم على الحصن المنيع.

- تقصد أن سيدك يطلب منا مهاجمة أراضي مملكتكم. أليس هذا فخاً تنصبوه لنا بحثاً عن ذريعة لغزو ديارنا؟
- معاذ الله أيها الأمير الجليل! وإني لعلى استعداد بأن أحلف لكم أعظم الأيمان على أن مولاي لا يريد لكم إلا الخير كل الخير. ثم إنّ نصركم يا مولاي نصر له، فهو سيلجم توسعات ردريغو دياث الذي أخذ يبني مُلكاً له داخل حدود مملكتنا، فكأني به تمرد على المنتصر أو يكاد. وفي الوقت عينه يكون لكم بضمكم ركانة حصن منيع على مقربة من بلنسية والبحر وتشكلون حاجزاً ما بيننا وبين الفتيان العامريين إن هم تنكروا للمنتصر، فإنه منذ هزيمته الأخيرة وهو يشعر بأنهم خارجون عليه لا محالة رغم ما انعقد بينه وبينهم من الصلة والمصاهرة، ولا نحسبهم سيهاجمونكم وأنتم على وئام معهم في السنوات الأخيرة. ثم إن استيلاءكم على الحصن سيزيدكم بلا شك قوة إلى قوتكم ويرهب خصومكم الذين يتربصون بكم من جهة الغرب.
- وما الذي يضمن لنا أن سرقسطة لن تحشد جيوشها لاسترداد المدينة؟

- أنتم تعرفون يا مولاي أنه لا يمكن لأحد في هذه البلاد الشديدة التقلب أن يضمن ما سيحدث في غده، ولكنّ سيدي يؤكد لكم أنه سينقل إليكم خطط الجيوش التي تتحرك نحوكم. ثم إنكم عندما تضربون الحصار حول الحصن فإن رجالاً لنا في داخل الأسوار سيفتحون لكم أبوابه ليلاً بعد مرور أسبوع من بدئه فتدخلونه على حين غرة فلا تثير سرعة التسليم الريبة ولا تلفت الأنظار إلى ما اتفقنا عليه. وبإمكانكم طبعاً إن ساءت الأمور أن تعودوا إلى ألبونت وكأنّ شيئاً لم يكن، أو تتحججون بالسيد الكمبيادور وما يصنعه هو ورجاله من إفسادهم في الأرض لتبرير تحرككم وتبرئة ساحتكم.
- حسناً، سمعنا ما لديك، انطلق مع حاجبنا إلى بيت الضيافة وامكث حتى ننظر فيما عرضته ونحمّلك بعدها جوابنا إلى سيدك.

ومضى الرسول ومكث ثلاثة أيام، حمّله بعدها عضد الدولة خطاباً يتضمن موافقته على العرض المقدم ومحذراً في الوقت عينه مراسله من اللعب معه بالنار. ومرت الأيام وأثبتت صدق العرض، إذ تم الأمر

كما خطط له مسبقاً وسقط الحصن المنيع بيد جيش صغير دون مقاومة حقيقية وهو ما أجج النار في صدور بعض رواد رواق الذهب وأثلج صدور قوم آخرين.

(14)

بين الأب وابنه

" سحبان الداودي! أوَ قد خلت أمة الإسلام في الأندلس من نقباء العرب أو البربر حتى تضع على حرسك رجلاً مثل سحبان الداودي؟! ".

كان الأمير أحمد يقول هذا لأبيه وهو غير مصدق لما سمع منه. صحيح أن الملك إسماعيل لم يكن يستشير ابنه في كافة شؤون الحكم، ولا زوجته بالتأكيد، وصحيح أيضاً أنّ الأمير أحمد كان لا يزال في ريعان الشباب وهو دون العشرين من عمره ولكن لم يغب عن عين الأب حنكة الولد وذكاؤه وما أبداه في السنتين الأخيرتين من مزيد اهتمام بشؤون الحكم وإدارة الدولة والسلم والحرب. وقد أعجبه تردده المتكرر على مجلسه في الرواق الذهبي حين يكون في سرقسطة إذ أنه كان يقضي معظم وقته في حصن الروضة بعيداً عن معمعة ونسق الحياة في العواصم والحواضر.

كانا في الجناح الخاص بالملك من قصره، وكانت أم الأمير حاضرة فخورة بابنها مشفقة على زوجها، ولكنها ما كانت تجرؤ فتعارض المنتصر إسماعيل أو تحرض ابنه عليه، غير أنها لم تكن تبخل عليهما بالنصح والتوجيه بألطف العبارات وأرق الكلمات.

المنتصر: وماذا تعرف عن سحبان الداودي حتى تعترض؟

الأمير: فلنفرض أني لا أعرفه يا والدي، يكفي أن اسمه لا يشير إلى نسب عريق أو قبيلة ذات شوكة ومنعة. ثم ليس ممن يعرف الناس أخباره أو يهابون جانبه. إن كان من المولّدين فهو مغمور لا يعوّل عليه، أو كان إسرائيلياً فإني أخشى أن يغلبونا على شؤون الحكم! أما تراهم يا أبي تكاثرت أعدادهم في جنبات القصر ما بين طبيب في البلاط وخازن في بيت المال ومعاون للحاجب وكاتب في الديوان.

الأم: لا تنس أن تخاطب أباك بلقب الملك يا ولدي، فلأنت أحرى الناس بإظهار الاحترام له والتقدير والتبجيل.

المنتصر: لا بأس في ذلك يا أمّ الأمير، فلا بد له من أن يتكلم كالملوك

إن كان سيصير عاجلاً أو آجلاً منهم. أمّا أنت يا ولدي فلا يمنعنك اختلاف دين أفراد الرعية من الحكم بينهم بالعدل واستعمالهم حيث يرعون ويفيدون.

الأمير: لست ضد استعمالهم يا أبي، أعني يا جلالة الملك، في تدبير شؤون الدولة أو الخدمة في القصر، لكن عندما يتعلق الأمر بالحرب والجند والحرس فالحسابات تختلف؛ ففي هذه الأماكن لا بد من قبيلة أو عصبة تدعم المكلّف وتقويه، ولا بد من شرف يغار عليه ويسعى لحفظه، ولا بد كذلك من أمانة معهودة مجربة وإلا سهل شراء الذمم وتبدل الولاء، فكيف إذا كان هذا متعلقاً بسلامة مولانا الملك المنتصر إسماعيل صاحب سرقسطة والثغر الأعلى حفظه الله وحماه ورعاه، وليس الكمين الذي تعرضت له عنا ببعيد.

المنتصر: ماذا تقصد بكلامك هذا؟

الأمير: أقصد يا أبي أنّ هناك من سرّب للقشتاليين أخبار حربك وكاد هذا أن يسبب لنا خسارة لا توصف ولا تعوّض لولا أن

لطف الله بك ونجّاك من كيدهم وغدرهم، وإلا فكيف عرفوا متى وأين وفي كم من الجند ستعبر الوادي؟

الأم: يا أميري الصغير لا تطلق العنان لخيالك فتجانب الواقع والصواب، فإنّ ألفونسو ملك غدار وهو يبث عيونه في كل مكان. بل ويقال أنه هو من دس السم لأبيه ثم لأخيه من بعده ليخلو له عرش قشتالة فيتربع عليه آمناً مطمئناً، فلا غرابة إن غدر بأبيك حفظه الله وهاجمه في مسيره على رغم ما بيننا وبينه من العهود والمواثيق.

المنتصر: ولدنا محقّ يا حسناء. صحيح أنّ لألفونسو عيوناً في كل مكان، ولكنه لم يكن ليجرؤ على الغدر بنا ونقض العهد وركوب الخطر لو لم يكن قد أحاط علماً مسبقاً بخطط الجيش. ومما يؤيد هذا الرأي هجومه الآخر في الوقت عينه على الثغر الأوسط وانتزاعه الكثير من أراضيه على حين غرة وغفلة من عبد الملك وقواته. وإني والله لفي حيرة من أمري إذ لم يفتأ هذا الهاجس يراودني من حين لآخر دون أن أجد

له تعليلاً غير الخيانة، ولكن من تراه يقف خلفها؟ هذا ما يقلقني ويقضّ مضجعي.

الأمير: لا بد أن مسرّب الأخبار شخص مطّلع من داخل البلاط، وأن له غاية خبيثة يسعى إلى تحقيقها، ولكن كيف السبيل إلى إماطة اللثام عن وجهه والظفر به قبل أن يستفحل خطره؟ لا بد من الحيلة والتدبير وبث العيون في الداخل والخارج.

وقبل أن يعقّب الملك على كلام ابنه قطع عليهم الحديث دخول خادمه الخاص معتذراً ليخبره أنّ حاجبه عثمان يطلب لقاءه، فخرج المنتصر مستغرباً لينظر ما الذي جاء بأبي المحاسن في مثل هذا الوقت من الليل!

- خيراً يا عثمان، ما وراءك؟
- البريد يا مولاي.
- أما كان ينتظر حلول الصباح؟
- لقد وصل بأخبار هامة وقت صلاة العشاء وقدّرت أنكم تفضلون الاطلاع على الأمر قبل أن تنتشر الأخبار في البلاد مع بزوغ شمس الغد.

- هات ما عندك من الأخبار، أهو ألفونسو مجدداً.

- بل بنو القاسم يا مولاي، لقد سقط حصن ركانة في أيديهم واستولوا على كل ما فيه من المؤونة والمال والعتاد. وقد أسروا من الجند من رفض الالتحاق بهم والانضواء تحت لوائهم.

- أي مصيبة هذه، وكيف يسقط حصن منيع كحصن ركانة بهذه السرعة، ومن أين لبني القاسم القوة والقدرة على انتزاعه من أيدينا؟ ثم أين كان السيد الكمبيادور وجنوده، أليسوا على بعد فراسخ من المدينة، فلماذا لم يهبّوا لنجدتها وفك الحصار عنها؟

- لست أدري يا مولاي، ولكن يبدو أن قائد الحصن راسله فاعتذر متعللاً بأنه لم يتلقّ مالاً لهذا الشأن.

- الوغد، بعد كل المكاسب التي حققها معنا والجوائز التي نالها وحتى الأراضي التي وضع يده عليها وتغاضينا عنه نظراً لخدماته، أبعد هذا كله يتخاذل عن نجدة أحد قوادنا بحجة أننا لم ندفع له ليفعل؟ أخشى أن يطالبنا غداً بالمال ليكف عنا أذاه. وماذا عن الوزير أبي علي، هل وصلت رسله أم تأخرت اليوم أيضاً؟

- وصل رسوله قبيل المغرب يا مولاي، وهو يبشر بنجاح الحملة والاستيلاء على قافلة أخيكم المنذر قرب مدينة جاقة، ويتوقع عودته إلى سرقسطة خلال ثلاثة أو أربعة أيام.

- حسناً، وهل بقي عندك شيء آخر؟

- هذا كل ما لدي يا مولاي. وأعتذر إن كنت أسأت التقدير بقدومي في مثل هذا الوقت.

- لا تثريب عليك يا عثمان، لقد أحسنت صنعاً. اذهب الآن لتأخذ قسطاً من الراحة فالأخبار التي حملت توحي بأن الصباح سيحمل لنا الكثير من الأمور، ولنأمل أن يكون سقوط حصن ركانة خاتمة الهزائم.

ومضى عثمان الحاجب في حال سبيله، وكذلك فعل المنتصر إسماعيل جاهلاً أنّ ما تمناه كان بعيد المنال.

(15)

المكيدة

- اسمعني جيداً ولتعِ عني ما أقول، وحذار من أن تحدّث أحداً بما سأفضي به إليك وإلا فأنت تعلم جيداً مصير زوجتك وصغارك.

- روحي فداء سيدي، وليقطع لساني إن أنا حدثت نفسي حتى بما ستقولونه.

- غداً يدخل الموكب المظفر محملاً بالغنائم ومحاطاً بحراسة مشددة. سيكون هناك بالتأكيد رجال يوزعون هدايا الوزير على الناس كما جرت العادة كلما عاد من غزوة من غزواته، وستكون كتيبة الموت قد عسكرت خارج أسوار سرقسطة، فلن يبقى مع الموكب إلا حرس الوزير وخدمه، وهم أشداء لا يستهان بهم.

عليك أن تختفي فوق سطح حانوت سأرشدك إليه، وهو يقع في منتصف الطريق بين المسجد الكبير وقصر المنتصر، وبكّر ما استطعت لكيلا تلفت إليك الأنظار ساعة دنو الموكب فيفتضح أمرك. واختبئ حتى إذا ما وصل الركب وصارت مقدمته تحت

بصرك فاشدد قوسك ما استطعت ثم أطلق سهماً واحداً صائباً قاتلاً، وعليك بالرأس أو العنق وإياك أن تخطئ وإلا فإنك سترى أهل بيتك يفعل بهم ويقطّعون أمام ناظريك قبل أن تلحق بهم. أمّا إن نجحت فستكون لك عندنا جائزة عظيمة ومكافأة سخية.

- أنا وأهلي جميعاً طوع أمركم يا سيدي، وأعدكم أنكم لن تروا من خادمك عبدون إلا ما تحبون.

- المهم يا عبدون، سهم واحد كما قلت لك، ثم تفر وتطلق لساقيك العنان وتعبر الأزقة متجهاً إلى أحياء سرقسطة الشرقية حتى تبلغ الدار التي سأحددها لك فتختفي فيها، ولا تسمح لأحد أن يحول بينك وبينها.

- أمرك يا سيدي. ولكن ماذا أفعل إن هم أحاطوا بي قبل أن أبلغها.

- أعمل فيهم سيفك ثمّ اقصد إليها ولا تتوقف. أمّا إن ألقي القبض عليك في الدار فلا تقاوم، وأغلق فمك ولا تتكلم فإنك ستسجن أياماً حتى يهدأ الناس ثم نخلّصك من السجن بكل سهولة ويسر. وإياك أن تفتح فمك بكلمة واحدة، فإن لي في السجن عيوناً وآذاناً تنقل لي ما يجري في جنباته، ولن يعجزني عقابك إن بدرت منك أدنى خيانة.

- عبدكم عبدون أبكم يا مولاي فلا لسان ولا فم. متى يريد سيدي أن أتحرك؟
- انتظر حتى يصلي الناس العشاء ثم اركب فرسك وانطلق، وأنت تعرف كيف تجتاز الأسوار ليلاً فلا داعي لكثرة السؤال.
- أمر مولاي.

(16)

المطاردة

مع صبيحة يوم الخميس التاسع عشر من شهر صفر كان موكب الوزير أبي علي الزاهد يجتاز طرقات سرقسطة بزهو وفرح. كانت الطبول تتقدم الموكب العائد من انتصار جديد يضاف إلى انتصاراته الكثيرة، وكانت الأزهار تتناثر على رؤوس العابرين، والعطايا توزع على الحاضرين موسرين كانوا أو معسرين.

كان الناس يتناقلون الأخبار مع قليل أو كثير من المبالغة والإطراء، يتحدثون عن شجاعة الزاهد وإقدامه واقتحامه أراضي مملكة أراغون غير آبه بهم ومهاجمته ما تبقى للمنذر بن أحمد بن سليمان من حصون في لاردة وما حولها فيفت في عضدهم ويشتت شملهم ويسلبهم أموالهم وأحمالهم وأحلامهم. ثم ها هو مؤخراً يعرّج على وشقة فيستردها بسهولة ويسر بعد أن كان سانشو راميز والد بيرو الأول قد استولى عليها وعجز المنتصر بقدّه وقديده عن استعادتها. ولم يخفض الناس أصواتهم معرّضين بملكهم المنتصر الذي مُني

بهزائم عديدة منذ أن تعرّض للكمين قرب الحامة قبل سنة من الآن بينما يسير وزيره الزاهد من نصر إلى نصر، بل وصل الأمر إلى أن أخذت بعضهم الجرأة للانتقال من التعريض إلى التصريح بأحقية الوزير في الجلوس على عرش سرقسطة بدلاً من صاحبها إسماعيل، فالأول _ بزعمهم _ أجدر بتولي شؤون الحكم وتسيير الدولة بينما يتخبط الآخر في ميراث آبائه.

وصارت هذه الغزوة الأخيرة، كما سابقاتها، حديث القصاصين في المجالس حتى قبل عودة الوزير إلى سرقسطة فقد وجدوا فيها مادة دسمة وكثيراً من أخبار الشجاعة والفروسية والبطولات دون إغفال قصص الغنائم وتفاصيلها والسبايا ووصفهن والمبالغة في إطرائهن والثناء على حسنهن وجمالهن. ولا بد كذلك من امتداح فرقة الوزير الحربية التي اشتهرت بكتيبة الموت والتي لا يكاد يقف شيء أمامها فلا يضاهيها في قوّتها وحسن بلائها جيش من جيوش العرب أو الإسبان، ولا حتى فرقة السيد الكمبيادور رغم حنكتها وتمرسها وشدتها التي شهدت عليها أغلب مدن الثغر الأعلى من الأندلس.

كان الموكب يتقدّم ببطء نظراً لازدحام الطرقات بالناس ومبادلتهم التحيات والتهاني، وكان قد توقف منذ عبوره أسوار المدينة حتى بلوغه المسجد الجامع ما لا يقل عن خمس مرات لأجل الاستماع إلى شعراء يلقون قصائدهم في مدح الوزير وجنده المظفرين. ولكن، وعندما توقف الموكب للاستماع لشاعر سابع أو ثامن، وكان الركب قد أوشك على بلوغه غايته، اضطرب حصان الوزير بشدة ثم ترنح ومال ثم وقع على الأرض وقد نفذ في عنقه سهم قاتل.

اضطرب الناس وهاجوا، وانطلق الحرس يبحثون عن مطلق السهم، بينما توجه آخرون ليستنقذوا سيدهم من تحت حصانه الذي سرعان ما خمدت أنفاسه. ثم علا صياح القوم وهم يشيرون إلى رجل ملثم تدلى عن سطح حانوت يملكه أحد أشهر تجار المدينة ثم أسرع يتوارى في الأزقة قاصداً شرق المدينة. وبدأت مطاردة عجيبة لم تشهد سرقسطة مثلها منذ قرون، وكاد الناس أن يقبضوا عليه مرة أو مرتين ولكنه جرح عدداً منهم فتركوه لحرس الوزير واكتفوا بإرشادهم إليه. وبعد ساعة من الكر والفر وصل الرجل داراً منعزلة فالتجأ إليها ثم ما لبث مطاردوه أن وصلوها فاقتحموها دون استئذان أهلها فولج

بعضهم غرفها وبعضهم فناءها وحديقتها حتى وجدوه وقد اختفى داخل قلة ماء شبه فارغة فأخرجوه منها. ووجدوا في الدار رجلين اقتادوهما مع القاتل إلى القصر حيث تم تسليمهم لصاحب السجن فأودع كل واحد منهم زنزانة ريثما ينظر في أمرهم.

أمّا الوزير فلم يصب بأذى، اللهم إلا رضوضاً في جانبه الأيمن بسبب سقوطه والحصان أرضاً، فانتقل بمساعدة معاونيه إلى القصر لينظروا من القاتل ومن يقف وراءه.

في هذه الأثناء، وعلى بعد فراسخ غرباً، كان رجلان ملثمان يصلان ضيعة صغيرة على ضفاف نهر شلون ويطلبون مقابلة صاحبها، فأذن لهم، وترجل الفارسان وكشفا عن وجهيهما، ثم ما لبث أن خرج صاحب الأرض من داره فتقدم أحد الرجلين وتأخر الآخر قليلاً في صمت وكان ضخم البنية مفتول العضلات. حياهما العجوز وحدجهما بنظره وهو لا يفهم سبب مجيء الواقف أمامه بجسمه المتوسط وعينيه الحادتين.

(17)

الوزير!

" أبو الفضل! حبيس داره منذ سنوات يدبّر لاغتيال الوزير الزاهد؟ لا أكاد أصدّق ما أسمع! ".

كان هذا أول ما صدر عن المنتصر إسماعيل حين بلغته أنباء محاولة الاغتيال التي تعرّض لها وزيره في عرض النهار، ولولا أنه يثق بمحدثه لكان اتهمه بالتلفيق والكذب والجنون.

- وأين هم الآن؟

- لقد أودع الموقوفون سجن القلعة تحت حراسة مشددة، أما الوزير فقد حملوه إلى داره الملاصقة للقصر بانتظار أن يأذن له طبيبه الخاص بالخروج، ولا إخاله سيتأخر بالقدوم إلى هنا.

- أو يقصد إلى السجن مباشرة!

- هذا وارد أيضاً، فلقد أبدى تماسكاً شديداً ودعا الناس إلى ضبط النفس وأخذ الحيطة والحذر رغم أنّ الخطر من حوله كان لا يزال قائماً وأنه كان على بعد خطوات من الموت.

- حسناً، هلم بنا نعوده فنطمئن على صحته ونحمد إليه الله أن نجاه من هذه المكيدة.

وأنت يا عثمان، أرسل إلى قائد السجن بأن لا يسمح لأحد بالاقتراب من أبي الفضل ومن معه قبل أن أقرر فيهم ما أراه مناسباً.

وخرج المنتصر في عدد من أعوانه حتى أتوا دار الوزير فإذا برجال من علية القوم قد سبقوهم إليه، ثم ما لبثوا أن أفسحوا الطريق للملك بعد أن نادى المنادي بحضوره فدخل وسلّم وألحّ على صديقه أن يبقى مضطجعاً في فراشه وأمر الحضور بالخروج ثمّ جلس على طرف السرير ولبث مدة قبل أن يتكلم.

- حمداً لله على سلامتك يا أبا علي، أراك تطارد الموت في بلاد الأعداء فلا تدركه، ثم يلحق بك إلى دارك فيكاد أن يفتك بك.
- أعمارنا بيد الله يا مولاي، وإنما نحن جنود نسعى إلى حتفنا على قدم وإلى المجد على أخرى فلا ندري على أيهما نستقر. أمّا آجالنا ففي كتاب من قبل أن نبصر النور، فلن ينال منا شانئونا أمراً لم

يقدّر لنا، ولن نريهم منا جزعاً ولا خضوعاً ولو نفدت منا الحيل وتعطلت الأسباب.

- صدقت يا أحمد. هذا عهدي بك، فلا ضعف ولا ركون ولو اشتد الخطب واستفحل الخطر. ولكن إن كنت تحب أن ترتاح في دارك أو في ضيعة من ضياعك أسابيع تنسى فيها ما حصل وتسترد عافيتك فلك ذلك فإنا قد أرهقناك في الآونة الأخيرة أيها الصديق المخلص الوفي.
- شكراً لمولاي الملك، ولكني أفضّل أن أباشر مهامي في أقرب فرصة لأري الخصوم من جهة أن مآربهم فشلت ولأستأصل من جهة أخرى رأس الشر قبل أن يمد يده وسهامه مجدداً إلى أناس أبرياء. وإني أسألك يا مولاي بحقك وحق آبائك وكل غال عليك أن تطلق يدي فيهم فأقتص منهم أياً كانوا، لا انتقاماً لنفسي ولكن انتصاراً للحق ولهيبة ملكنا المعظم وتثبيتاً لملكه.
- تقصد أنك تريد أن تتولى أمر التحقيق بنفسك مع الثلاثة المحتجزين؟

- هو ذاك يا مولاي. وإن كنت أثق بقائد الشرط ولكنه أمر مرتبط بالحكم والسياسة، فلا بد لفهمه ومعالجته من رجل حكم وسياسة لا مجرد رجل عسكر أو قضاء.
- حسناً، لك ذلك. ولكن ترفّق بأبي الفضل فإني غير مقتنع بضلوعه في هذه المؤامرة فأطلعني على ما يجدّ لك أولاً بأول ولا تحكم عليه بشيء حتى يستبين الأمر وينجلي.

(18)

في السجن

- أصدقك القول يا عيسى إن قلبي ليتفطر على هذا الشيخ. إنهم يعذبونه ويهينونه ليل نهار وهو لا يفتأ يكرر أنه بريء ولا صلة له بالأمر لا من قريب ولا من بعيد.
- وهل تصدقه يا عباس؟
- لا أدري، ولكن انظر إلى حاله وسنه، تكاد تزهق روحه وهو لا يزيد على ما قال. هل تراه حقاً فعلها أم هي تصفية حسابات بين الكبار؟ أو تراه أضحى كبش فداء لقوم آخرين؟
- ما دخلنا في هذا يا صاحبي، إن نحن إلا عبيد نؤمر فنطيع، أما التحقيق والتحليل وبواطن الأمور فما لنا فيها ناقة ولا جمل.
- ربما كنت محقاً فيما تقول، ولكن انظر إلى الخادم يُضرب دون ضرب سيده ولا يُسأل عن شيء، ثم الثالث الذي رمى السهم، ضُرب في اليوم الأول ضرباً لا يقطع ثوباً ولا يسيل دماً، ثم تم إغفاله ونسيانه كأنه لا حاجة لهم به... أولا ترى هذا عجيباً؟!

- قلت لك يا صاح دعنا من هذا، لا أحب أن أوضع معهم ولا أن أنسب إليهم، ولا أريد بحال من الأحوال أن يقطع لساني أو يجلد ظهري، أما أنت فقد نصحتك، ولا أراك إلا معاقباً على طول لسانك وتدخلك فيما لا يعنيك.
- اهدأ يا عيسى ولا تضخم الأمور، إنما نحن نقطع الوقت بالكلام ليس إلا، ولن يضر أحداً ما نظن وما نقول، وبخاصة أننا لا نتكلم وسط جمع غفير، إنما نحن اثنان وهؤلاء المساجين، ولا أراهم يعقلون شيئاً مما نتلفظ به فلكل همه الذي يشغله.
- يا صديقي في مثل هذا المكان حتى الجدران لها آذان، أم تراك نسيت ما حل بالحارس أيوب قبل سنتين؟
- آه... أيوب. لقد نسيت قصته تماماً. ما علينا، لنتكلم إذن في شأن آخر.

وانتقل عباس يسائل صاحبه عن طعام السجن ورأيه فيه، وعن المساواة بين السجانين والسجناء في الطعام أتصح أم لا تصح، وهل يجوز أن يكون مالحاً أو قليل المرق... وعاد عيسى يندب حظه الذي أوقعه مع هذا الحارس الثرثار الذي يخوض فيما لا يعنيه.

بعد أيام، دخل قائد السجن وقد امتقع وجهه غضباً وراح يصرخ ويركل والشرر يتطاير من عينيه، فلقد فر السجين عبدون دون أن يشعر به أحد، أما أبو الفضل فقد وجد ميتاً في زنزانته ورأى طبيب القلعة أنه مات مسموماً غير أن قائد السجن طلب منه التكتم على هذا إذ لا ينقصه هم يضاف إلى هموم الهرب والموت.

وانطلق الحرس يجوبون ردهات السجن وأرجاء القلعة والبساتين المحيطة بها والدور القريبة منها دون أن يجدوا أثراً للسجين الفار.

أما عباس فقد جلد مائة جلدة وزج به في الزنزانة التي فر منها سجينه ليلاً إذ وجد صباحاً يغط في نوم عميق، ولم تشفع له اعتذاراته وتبريراته وادعاءاته بأن الجن هاجموه وصرعوه.

وأما عبدون، فقد كان محاطاً بأهله وأولاده، وكان كذلك على موعد مع مهمة جديدة لا تقل أهمية عن سابقتها، مهمة حامية جداً، وكان يمنّي نفسه برضا سيده عنه والجوائز التي سيحظى بها كلما أجاد في تنفيذ ما يوكله إليه بإتقان وكتمان شديدين.

(19)
بين المطرقة والسندان

- كيف يهدأ لي بال يا حسناء والأمور تسير من سيء إلى أسوأ؟
- لا بد لكل مشكلة من حل، حاول فقط أن تهدأ وتفكر كما كنت تفعل دائماً لتجد أفضل الحلول وأنجعها.
- والله لم أعد أدري ماذا أصنع ولا كيف أتصرف. ها هو ألفونسو يحشد قوات لم نر مثلها من قبل في حروبنا معه ولا مع من سبقه ولقد استولى على أراضينا غرباً ولن يمضي وقت طويل قبل أن يبلغ قلعة أيوب، والأنكى من ذلك أنه ابتلع طليطلة بعد حصار طويل ثم طلبيرة وقلعة رباح، بل ابتلع الثغر الأوسط بأكمله وصار على بعد قوسين من قرطبة ومن إشبيلية. وإن كان قد أوقف زحفه جنوباً، إلى أجل، فما ذاك إلا ليتفرغ لنا فيستأصلنا عن بكرة أبينا ثم يعود ليكمل ما بدأه هناك.
- حاول أن تعرض عليه مضاعفة الجزية ليكف عنا بلاه وإن كنت لا أحب أن ينال لا هو ولا قومه منا ديناراً ولا درهماً.

- ومن قال لك أني لم أفكر بهذا، ولكنه استكبر وتعجرف وطلب فوق الضعف عشرة آلاف سيف ومثلها من التروس والدروع ومثلها من الرماح وخمسة آلاف فرس. والله لا أراه يهدف من طلبه هذا إلا الذهاب بما تبقى لجيوشنا من عدة وعتاد.
- أفهم ذلك جيداً، وبمَ أجبته؟
- لم أجبه بشيء. طلبت من الرسول الانتظار حتى نسلمه جوابنا غير أن الوقت يمر ولا أراه في صالحنا.
- وما رأي وزيرك الزاهد... جداً.
- هو في طريقه من الجنوب بعد أن استعاد قلعة ركانة سلماً من بني القاسم، وهذا أفضل لنا ولهم ففيه حقن للدماء وكسب للوقت في مثل هذه الظروف.

ثم ماذا تقصدين بقولك " الزاهد جداً "، إلى أي شيء تلمحين؟
- أما ترى يا سيدي أنه يبالغ في مظاهر العز والفخامة ويحشد في بلاطه كما في موكبه الأعيان والشعراء ورؤوس الجند والقبائل.
- يا سبحان الله! ألست أنت من أشار بضرورة خلعه ثياب التقشف والزهد وارتداء ثياب العز والملك لكي يقبله الناس، فما عدا مما بدا؟

- أدري ذلك، ولكن كأني به قد غرته أبهة الملك ونعيمه فمال إليها بقلبه وجوارحه حتى صار بين الناس مثالاً للترف والبطر.

- دعي عنك هذه الوساوس فإنما هي من الشيطان. لا يزال الرجل تقياً ورعاً ولا يكاد يخلوا مجلس هو فيه من موعظة تزهّد في الدنيا وترغّب في الآخرة. لكن ما يقلقني هو أمر آخر كلياً.

- لا بد أنك تعني كلام الناس.

- صدقت، ولكن بالله عليك كيف بلغك ذلك؟

- عندي وصيفة أرسلها إلى السوق لتشتري منه بعض الحاجيات فتأتيني بها وبما يقوله الناس ويتداولونه. وقد سمعت مراراً في الآونة الأخيرة ما مفاده أن غزوات الوزير مظفرة دائماً بينما غزوات الملك تتعثر وتتقهقر.

- صحيح، وآخرها هزيمتنا في مدينة سالم رغم استماتة جنودنا وإحكام خططنا. ثم آخر المصائب ثورة الصقالبة في المدينة اليوم، فلقد غاظهم موت الوزير السابق أبي الفضل في السجن ثم حريق كبير التهم منازلهم قبل ليال قليلة في الحي الذي يحمل اسمهم من المدينة حتى ربطوا هذه بتلك ثم اتهموني بأني أقف

خلفهما بهدف كسر شوكتهم واستئصالهم من المدينة. ثم انضم إليهم عدد كبير من المولّدين والمغرضين والحاقدين والموتورين يعيثون في ضواحي سرقسطة فساداً مطالبين بتنحيّ عن الحكم. وأيم الله إن هذا لعجب عجاب؛ أفني نفسي ووقتي وجهدي كله لأجل أن يعيشوا عيشة هنية رضية، ثم هم أولاء يقلبون لي ظهر المجن ويقابلونني بالجحود ونكران الجميل.

- لا بد أن بعض أعدائك يقف خلف تحريضهم فأوحى لهم بأنك أنت المتسبب بكل ما جرى، ولكن من تراه يكون؟

- ما يغيظني هو أني لست أدري، رغم أني بثثت الكثير من العيون لعلي أظفر بالخائن المسؤول عن هذا كله دون أن أوفق لشيء مقنع. كانت بعض الدلائل تشير إلى أبي الفضل، ولكن شعوراً يراودني بأنها دلائل مصطنعة أو مبالغ في تأويلها. والرجل على ما كان من رغبة في التحكم يبديها ولا يخفيها فإنه كان وفياً لعهد أبي رحمه الله وللدولة التي احتضنته ورعته. ثم إنه كان، رحمه الله، حبيس داره لسنوات لا يزوره أحد إلا بإذننا، وما كان يحدث ذلك إلا لماماً، فأنّى يتسنى له تدبير كل هذه المكائد؟ لا، لا أستطيع

تصديق هذا ولو تضاعفت ضده البراهين. ثم إنه مات في سجنه، وسرت الإشاعات بأنه سمّ، فهل حقاً حدث ذلك، وإن نعم فمن دس له السم ليتخلص منه، لا بد أن هناك رأساً غيره يدبّر في الخفاء ما لا يعلمه إلا الله.

- وما أنت فاعل الآن؟

- ستكون الليلة حامية نظراً لثورة الصقالبة ومن معهم، وقد أمرت قائد الشرط ببث جنوده حول القصور وفي الطرقات المؤدية إليها كذا عند السور ومداخل المدينة، وبعد غد يصل أبو علي الزاهد فأنظر معه كيف السبيل إلى تهدئة القوم فإني أرى له قبولاً بين الناس وكلمة مسموعة وإن كان رأي الصقالبة غير ذلك بيد أنهم لا يملكون سلطة على بقية الثائرين.

(20)

تحت جنح الظلام

- اسمع يا عبدون، لقد أبليت بلاء حسناً، ولتعلم أني راض عنك أشد الرضا، بل أكثر من ذلك... إني أفكر بأن أستعملك على أمر هام تسر به نفسك ويعلو به شأنك. لكن بقيت لي عندك مهمة واحدة، واحدة فحسب، تنجزها ثم تفوز بالنعيم الذي لم تكن تحلم به يوماً ولن تستطيع تبلغه إلا بواسطتي.

- خادمكم عبدون رهن إشارتكم يا سيدي، رغباتكم أوامر وروحي لكم فداء.

- هذا عهدي بك يا عبدون. اسمعني جيداً، ستتسلل إلى المدينة تحت جنح الظلام، وحذار أن يفطن إليك أحد، فالحراسة لا بد أن تكون مشددة هذه الليلة. هناك تقصد دار كبير التجار وتلقي هذه الجعبة الحمراء في فناء داره، ثم تعمد إلى دار علقمة بن أدهم الصقلبي فتلقي بالرداء الأزرق أمام باب بيته وتبعثر هذه

الخطابات تحت الرداء وخلفه، ثم تقصد إلى المطحنة خارج الأسوار عند ضفة النهر، وتنتظر زورقاً يقلك إلى مكان أمين.

- أمر مولاي، بإمكانكم اعتبار هذا الأمر قد تم وأنجز.
- سر إذن إلى غايتك دون تردد ولا وجل أيها البطل الأمين.

ومضى عبدون، إلى غايته، ونجح بعد منتصف الليل بقليل في اجتياز السور بسهولة ويسر، ثم جاب المدينة في غفلة عن عيون رجال الشرطة المنتشرين في كثير من أحيائها فأنجز ما كلفه به سيده ثم غادر سرقسطة كما دخلها خلسة.

وعند المطحنة القديمة، وقبل أن يؤذن المؤذن لصلاة الفجر بساعة، كان عبدون واقفاً ينظر إلى النهر بانتظار الزورق الذي سيقله إلى المجد والظفر، إلى الأحلام الجميلة والمناصب الرفيعة، إلى الذهب البراق والحدائق الغناء. وأخذ يتخيل كيف سيكون حاله بعد أيام ومن سيستعمل من أصحابه وأقربائه؛ لا بد أن أكثرهم لن يصدق أن عبدون الوضيع النكرة صار سيداً في قومه يسكن القصور ويلقي الأوامر، لكن الحياة قد ابتسمت له أخيراً. صحيح أنه عرض نفسه لمخاطر كثيرة وأنه اقترف جرائم فظيعة، ولكنه عندما يقارن ما فعل

بما هو مقبل عليه من العز والسؤدد يجد الثمن مقبولاً، مقبولاً جداً ومبرراً لكل ما سبق.

قطع عليه حبل أفكاره الساحرة صوت خيّل إليه أنه سمعه، أصغى جيداً ليتبيّن كنه هذا الصوت غير أنه لم يسمع شيئاً. ثم بلغ سمعه ذاك الصوت مجدداً لكن ما لبث أن اختفى. كان واثقاً أنه ليس صوت مجاذيف وليس يبصر أي ضوء يتأرجح فوق صفحة الماء، قرر في النهاية أن يدنو من النهر ويلقي نظرة فاحصة عن كثب، وحين صار على بعد خطوتين من الماء أحس بوقع أقدام مسرعة تأتي من خلفه، فاستدار على عجل والتقت عيناه للحظة بعينين يعرفهما حق المعرفة، ولكنهما هذه المرة كانتا تقدحان بالشرر، ثم أحس بجسم معدني مدبب يهوي على رأسه فحاول تفاديه لكن خصمه كان أسرع منه فسقط في النهر وحمله الماء إلى المجهول.

في نهار اليوم التالي، كان بعض عمال الأراضي الريفية المحيطة بسرقسطة يحملون ثمارهم وغلالهم إلى المدينة الملتهبة، ويحملون كذلك خبر العثور على جثة رجل مجهول وجد ميتاً على ضفة النهر

قرب بستان على بعد فراسخ من المدينة وقد شج رأسه ونزف حتى مات ووري الثرى في مقبرة القرية التي وجد فيها.

لقد كان لهذا الخبر أن يسترعي انتباه جل أهل سرقسطة لو أنه وصلهم في غير تلك الظروف، ولكن المدينة كانت قد استيقظت على نار ملتهبة وفتنة شديدة لم تشهد مثلها منذ عشرات السنين، منذ أن نبذ أهلها حكم بني حسان ونادوا بسليمان بن عواد أميراً عليهم؛ كان سليمان قبل ذلك قائد فرقة من جيش الخلافة يتولى أمر قلعة أيوب وما جاورها من الثغر الأعلى، ثم وقعت الفتنة الكبرى وسقطت الخلافة الأموية في الأندلس واستقلت كل طائفة بأمرها، ولمّا لم يعمّر حكم بني حسان طويلاً ورفضهم الناس ونادوا ابن عواد لباهم ولم يخيّب ظنهم، ولم تشهد المدينة ثورة تستحق أن توصف كذلك حتى هذا الحين.

لقد كان أهل سرقسطة في شغل شاغل عن كل شيء ما عدا ثورتهم، سوى أذنين كانتا تترصدان الأخبار، فتلقفتا خبر الرجل المقتول بالرضا والسرور.

(21)
انقلاب

دخل الوزير أبو علي الزاهد سرقسطة صباح يوم السبت محاطاً بمئات الحراس العتاة الأشداء المدججين بالدروع والسلاح. كان يوماً شديد الحرارة رغم الرياح الباردة التي كانت تهب من حين لآخر مؤذنة بدنو فصل الشتاء. لم يجد الموكب صعوبة في التقدم، فقد كان الناس يجلّون الوزير ويحفظون له قدره ومقامه، وكان إذا تجرأ أحد على رفع صوته برفض الوزير وما يمثل يسرع أصحابه لإسكاته. واقترب الموكب من القصر والوزير صامت متجهم، ولم يقف كما العادة لسماع الشعراء وتوزيع الأعطيات، وكانت اللحظات القليلة التي توقف فيها بهدف انتظار فتح طريق مغلق أو الاستماع لشكوى حانق أو مظلوم، وسار الموكب والوزير يعلو وجهه الهم والوجوم، والناس تسير خلفه وحتى وصل مشارف القصر فاستدار ليجد أن نصف أهل سرقسطة قد تجمهروا خلفه أو يزيد، فخطب فيهم خطبة قصيرة حمد فيها الله وأثنى عليه، ثم ذكّر الناس بأهمية

محاربة الظلم والأخذ على يد الظالم، وبأهمية السمع والطاعة لولي الأمر ما أطاع الله فيهم، ثم شكر للناس هبّتهم وحرصهم على إحقاق الحق وعدم الرضوخ للظلم والباطل، وطالبهم بلزوم أماكنهم ولجم غضبهم ووعدهم بإنصافهم وإعطاء كل ذي حق حقه، ثم استدار ودخل قصر الجعفرية محاطاً بعدد من حراسه، بينما وقف الآخرون خارج القصر يحجزون الناس إن هم نفد صبرهم وانفجر غضبهم.

دخل الوزير رواق الذهب الذي بدا لمرة باهتاً غير براق ولا جذاب، وهبّ الملك المنتصر لاستقباله بالحفاوة والترحاب غير متوقع لردة فعل صاحبه التي كانت صادمة له ويصعب تصديقها !

- حمداً لله على سلامتك يا أبا علي، أخشى أنّ عودتك هذه المرة كانت على غير ما تتوقع وتشتهي.
- لا تسخر مني أيها الملك، لقد انكشفت كل ألاعيبك وآن الأوان لوضع حد لها.
- ما الذي تقصده بقولك هذا يا وزيرنا، عن أي ألاعيب تتكلم؟ بل منذ متى يخاطب الوزير ملكه بهذه اللهجة؟!

- ألا فاعلم يا ابن عواد أنه لا كرامة لملك يقتل شعبه ويحرق دورهم ويكيد لرعيته في السر والعلن. لقد كنت تدّعي زوراً الاستقامة والصلاح، أما وقد انكشفت حقيقتك وبطل سحرك فلا تنتظر مني ولا من الناس السكوت عليك والرضا بك بعد اليوم.
- والله إني لا أفهم شيئاً مما تقول، أفصح يا هذا وإلا فاغرب عن وجهي لا سلّمك الله.

قذف المنتصر هذه الكلمات كالبركان وقد احمر وجهه غضباً وأطبقت يداه على جانبي عرشه، وهمّ بالوقوف ومناداة الحرس ليقتادوا من خيّل إليه أنهم قد جنّوا أمامه إلى السجن، لكنّ حرس الوزير كانوا أسرع منه إذ تقدّموا من الملك خطوات واضعين أيديهم على أسلحتهم مستعدّين لشهرها بوجهه.

لم يصدّق المنتصر ما يرى أمامه، فانتصب واقفاً ونادى على صاحب حرسه ليقوم بواجبه، غير أنّ سحبان أشار إلى أتباعه أن يكفوا فتراجعوا للخلف ووقفوا كالمتفرجين الذين لا ناقة لهم بما يجري ولا جمل، فلم يملك المنتصر إلا أن يتهاوى على عرشه وهو يتمنى أن تكون هذه اللحظات حلماً مزعجاً يستيقظ منه بعد حين.

- ما الذي يجري يا أحمد بن علي بالله عليك؟
- لقد انكشف المستور أيها الملك. كنت تكيد لخصومك بالسر والخفاء لتتخلص منهم الواحد تلو الآخر. فاستعملتني قبل سنوات لتضرب بي وزيرك أبا الفضل، ثم لما رأيت نجاحاتي وإخفاقاتك أرسلت من يحاول قتلي وسط الناس، فلما أخفق التجأ إلى دار أبي الفضل بتوجيه منك لتثبت التهمة عليه وهو منها براء. ثم أرسلت من يدس له السم في سجنه بعد أن أذقته ويلات العذاب. ولم تكتف بهذا حتى أرسلت من يحرق دور ذويه وأتباعه الذين بدأوا يشكّون في وقوفك وراء مقتله فأردت قهرهم وإسكاتهم. لكن عدالة السماء أقوى وأمضى وهأنذا أضم صوتي لأصوات أهل سرقسطة جميعاً وأطالبك بالتنحي وأداً للفتنة وحقناً للدماء.
- يبدو أنك جننت يا هذا! والله لو أن هذا الكلام تلفّظ به غيرك لكنت عذرته، أما أنت فأعلم الناس أن جميع ما ذكرت محض كذب وافتراء وثمرة وهم وخيال، فارجع إلى رشدك واصرف الناس قبل أن يحدث ما لا يحمد عقباه.

- ما زلت مصراً على الإنكار وادعاء البلاهة، ألا فاعلم أن الثائرين الشجعان قد عثروا على خطاباتك لبعض أتباعك تأمرهم فيها ببعض ما ذكرت، وعثروا كذلك في بيت كبير التجار عندما دهموه على أكياس النقود التي أرسلتها له ليوزعها على غلمانه الذين قاموا بحرق الدور، كما وشهد بعض حرسك عليك بما علم وما خفي أعظم، فإما تتنحى وتحفظ حياتك وإما القتل قصاصاً.
- أتهددني يا نكرة ولولاي لم تك شيئاً؟ أتحسب أن المنتصر لا جند له ولا عصبة ولا سند؟ والله لـ...

وقبل أن ينهي الملك وعيده دخل الحاجب عثمان وهو يرغي ويزبد ويتفوه بكلام لا يعرف أوله من آخره وقد حمل بين يديه ثوبه الحريري الذي كان عليه ذلك اليوم وزينته وخطابات البريد وصرة نقود كبيرة فتجاوز الحرس غير عابئ بهم وهم في دهشة وحيرة من أمرهم فلم يعرفوا أيحجزونه أم يتركوه. وتقدم أبو المحاسن حتى صار بين يدي الملك فرمى كل ما كان يحمل في حجر سيده ومضى نافضاً يديه من خدمة مولاه معيداً إليه خلعته وعطاياه ومهامه التي كلفه بها وخرج وقد احمرت عيناه وهو يلعن الظلم والظلام.

أما الملك فقد لاحظ ورقة وضعها حاجبه بين يديه فيما وضع بشكل تلتقفها عيناه دون سواه، فجلس متأملا للحظات ثم رفع رأسه مخاطباً الوزير:

- اسمع يا أحمد. أظنك الوحيد القادر على إخراج سرقسطة مما هي فيه، وإن كان الأمر كما ذكرت فلن يصدّق الناس شيئاً مما أقول ولو أقسمت لهم بأغلظ الأيمان على براءتي مما نسبوا إليّ. لكن الملك الذي بناه بنو عواد من زمن جدي سليمان إلى يومنا هذا لا يمكن أن ينقض بهذه البساطة، وإن أنت تملّكت سرقسطة عنوة فإن روطة وقلعة أيوب مدججتان بالجند والعتاد، وولاء هؤلاء لي دون سواي من الناس، ومثلهما كثير من الحصون القريبة منا وإن بأعداد وعتاد أقل. واليوم السبت، فاصبر وصبّر الناس حتى الجمعة، فأتنازل لك عن الحكم علناً في المسجد الجامع على رؤوس الأشهاد فيرضى الناس ويطيع الجند ولا يقال خُلع المنتصر أو أجبر أو انقلب عليه وزراؤه وأعوانه، فتنال ما تريد ويدرك الناس غاياتهم ونجنّب البلاد الدمار والهلاك وندّخر قوّتها لمجابهة خطر الإسبان الداهم إذ أن

ألفونسو يتربص بنا الدوائر ولن يفوّت فرصة الاقتتال فيما بيننا ليتخلص من شوكة المسلمين التي تغيظه في هذا الثغر من الأندلس وهو الذي يكاد يبسط يده على الجزيرة كلها. ثم إنّ يوم الجمعة القادم يوم عيد، وهذا أدعى لبهجة الناس وإدخال السرور إلى قلوبهم وتخفيف احتقانهم.

- كلام معسول جميل، ولكن ما الذي يضمن لنا أنك لن تستغل هذه الأيام لحشد جيوشك أو شراء ذمم الناس وصمتهم؟

- أتريد أكثر من بقائي بين ظهرانيكم، والناس والحرس وحتى موظفو الديوان معكم، فإن ارتبتم في شيء فما أسهل تخلصكم مني. ثم إني سأحضر لهذا المجلس كل يوم، وستكون شاهداً على ذلك، ولن أصدر قرارات بحل أو عقد حتى يحين يوم الجمعة. وكل ما أطلبه هو أن أخرج بعدها بأهلي وخدمي فنقيم في حصن روطة غرباً أو في طرطوشة بعيداً من هنا جنوباً، فليس بعد ما سمعت ورأيت اليوم في دوام الملك لي مطمع.

- لا بأس، وليكن ذلك أدعى لترتيب شؤون الدولة على نحو أفضل بما فيه خير العباد والبلاد. وأحذرك بأن أدنى خطأ ترتكبه سيعود

عليك بالويل والندامة والخسران. أما الآن فسأخرج لأصرف الناس ثم أعود إليك.

ومضى الوزير فخرج وخطب في الناس ووعدهم خيراً، وأن كل مظلوم سينصف خلا أسبوع على الأكثر. وأنهم إن لم ينالوا مبتغاهم فما عليهم سوى النزول إلى الشارع مجدداً وانتزاع حقهم بالقوة.

ثم عاد إلى القصر فأوعز إلى مساعديه بأن تبقى كتيبة الموت على أهبة الاستعداد حول أسوار المدينة، وقد أرسل من يأتيه بأبي المحاسن عثمان إذ أنه ارتاب في تصرفه فأراد أن يطمئن، لكن أحداً لم يعثر للحاجب على أثر لا في داره ولا في دور أقربائه وكأن الأرض قد انشقت وابتلعته.

لا بأس... قال الوزير لنفسه. إنما هي أيام ويحل يوم الجمعة، يوم النصر والتمكين.

الجزء الثالث

(22)
فرصة

كان أحمد بن علي متكئاً على سريره الوثير سارحاً في عالم أحلامه يتذكر أيام القلة والعوز وكيف كان حينها عازفاً عن الدنيا معرضاً عن لذاتها، أو جاهلاً بها بشكل أدق، وكيف ذاق بعدها طعم القوة والسطوة والسلطان، وكيف أنه تمتّع في بداية أمره قبل أن يرى الأمور على حقيقتها. آه ما أغباه، أيرفض هذه الشهوة إنسان عاقل؟ كم هو جميل أن يأمر فيطاع، أن يهابه من حوله، أن يخاطبوه بألفاظ الفخامة والرياسة والتعظيم والإجلال، وكم هو أجمل أن تخرج هذه الألفاظ من أفواه شانئيه ومبغضيه فتكون كالسم لهم لا عليه.

كان مساعده موسى الترجمان، أو موسى الأصغر كما يسمونه، أول من فتح عينيه إلى هذه الحقيقة، إذ طالما مدح فيه ذكاءه وبعد نظره وقوة عزيمته وشدة شكيمته. وقد حدث أن أبدى أمامه قناعته بأنه أفضل من يتولى الحكم بعد الأمير، قبل أن يتلقب بالملك المنتصر، ثم لما اتسعت إمارة سرقسطة وصار لها شأن عظيم، بفضل أبي علي

الزاهد بالطبع، أصبح من رأي موسى أن الوزير هو أولى من الملك نفسه بالعرش فلولاه لما استقر عليه هذا الأخير هانئاً ولما قويت شوكته واتسعت رقعة حكمه، فالفضل والقدرة للوزير لا لصاحبه وهو إذن حقيق بأن يتفرد بالملك دونه. وما زال موسى يردد على مسامعه هذه الكلمات حتى ارتاحت نفسه لها ورآها حقاً لا مراء فيه وأمراً لا غبار عليه. والآن وقد ثار الناس، وظهر لهم فساد الحاكم وضعفه، كان واجبه يحتم عليه أن يتقدم ويأخذ زمام الأمور بيده ويقبض عليها بيمينه.

كان يفضل بالطبع أن يعزل الملك مباشرة فيودعه السجن أو حتى باطن الأرض، ولكن ربما أثار عليه هذا حلفاء المنتصر وأتباعه وخصوم الزاهد وحتى الغيورين منه وهم كثر، وعليه فلقد وجد فكرة الانتظار أياماً قليلة ليجد الملك لنفسه مخرجاً يحفظ له ماء وجهه فكرة لا بأس بها، وماذا عليه إن انتظر أياماً معدودة وهو الذي حلم بها منذ زمن بعيد.

قطع عليه حبل أفكاره صوت مساعده يخبره أن بالباب رجلاً غريباً يزعم أنه يحمل للوزير خبراً مهماً جداً وأنه لا يستطيع الإفضاء به

لسواه، فاعتدل في مجلسه وأذن له بالدخول عليه وهو يتساءل عن سر هذا الزائر الغريب.

- من أنت يا هذا وما وراءك؟
- خادمك مسرور يا مولاي، وقد أرسلني سيدي إليكم بخبر فيه لكم باب سرور وحبور.
- ومن يكون سيدك؟
- إنه عمران بن حكيم، أحد كبار تجار شنتبرية، وقد أرسلني لأمر يتعلق بزحف ألفونسو نحو أراضي بني الرزين.
- أفصح يا هذا وأوجز.
- تعرفون يا سيدي أن ابن العلاء صاحب السهلة لا قبل له بمواجهة جيش القشتاليين، وأنه كما العادة سيرسل لهم المال والهدايا ليتقي شرهم، غير أن ألفونسو طامع هذه المرة ورد على ابن العلاء بأنه لن يرضى بأقل من خمسة أضعاف الجزية المعتادة.
- سيرضخ ابن العلاء ويدفع، فهو ليس برجل حرب وقتال.
- صحيح يا سيدي، ولا بد أنكم تعلمون أين نزل الكمبيادور.

- ما الذي تحاول قوله؟

- لقد نزل السيد الكمبيادور بسبعة آلاف مقاتل قرب شنتبرية، وهو يعيث في الأرض فساداً أينما حل وارتحل. وقد رضخ ابن العلاء كما قدرتم، وجهز قافلة كبيرة محملة بالذهب والفضة والدروع والسلاح ليرسلها إلى ملك النصارى ومعها حامية كبيرة تعدادها يربو على الألف ما بين فارس وراجل، ويفترض أن تغادر هذه القافلة شنتبرية الليلة وتسلك طريقاً طويلاً بعيداً عن معسكر الكمبيادور لكيلا يضع يده عليها.

- هذا خير له. وما المطلوب من سرقسطة بالتحديد؟ ولماذا يرسل تجارها إلينا؟ كان أحرى بهم أن يعرفوا أننا لن نبذل قطرة دم واحدة لأجل سلامة بني الرزين ودوام ملكهم.

- وهنا مربط الفرس يا مولاي، ولذلك أرسلني سيدي عمران إليكم ليعرض عليكم الاستيلاء على القافلة وما فيها وهو يمدكم لأجل تحقيق ذلك بكل المعلومات اللازمة عن خط سير القافلة ومواعيد توقفها وبالمزيد من التفاصيل عن حاميتها.

- وماذا يريد بالمقابل؟

- لا يطلب شيئاً يا مولاي سوى أن تسهّلوا له العبور بأمواله إلى سرقسطة والاستقرار بها وأن تجودوا عليه بحظوة في السوق تفتح له الأبواب المغلقة ويتقرب من القصر ومن الناس.
- وهل أرسل سيدك إلى غيرنا؟
- ليس لي علم بهذا يا مولاي، ولكني لا أستبعد إن أنتم رفضتم أن يرسل إلى السيد نفسه فيدله على القافلة مقابل حصة منها أو تسهيلات لتجارته مع أراضي الشمال مثلاً فهو رجل طماع لا يفكر إلى بخزائنه ونقوده.
- ولماذا اختارنا برأيك؟
- لقد بلغه يا سيدي أنكم كنتم استوليتم قبل مدة من الزمن على قافلة لبعض خصومكم وسط أراضي مملكة الأراغون دون خوف منهم أو خشية، فرأى أن شأن قافلة ابن العلاء قد يهمكم. إضافة إلى صيت كتيبة الموت التي لا تقهر والتي تخضع لكم مباشرة، ثم أخبار الثورة التي طارت في الآفاق ومطالبة الناس بكم عليهم ملكاً، وفوق هذا موقع مملكة سرقسطة بين الممالك والبلدان، كل هذه الأسباب دفعت به إلى إرسالي إليكم على جناح السرعة بهذا

العرض قبل أن تنطلق القافلة وتفوت الفرصة، وهو يخشى إن لم يستنقذ تجارته وماله الآن أن يضيع كل شيء بعد أشهر قليلة.

أطرق الوزير ساعة يفكر فيما عرضه الرجل عليه، فالفرصة سانحة لتدعيم خزائن المملكة التي بدأت تنضب بفعل كثرة الحروب وتوالي الأزمات والأموال الطائلة التي يعطونها لألفونسو لكف أذاه عنهم ولحمايتهم من ملك أراغون، غير أنه يخشى في الوقت عينه أن يستغل أنصار المنتصر ابتعاد كتيبة الموت ليهاجموا المدينة من الخارج ويبددوا كل ما حققته الثورة. ولا بد كذلك من قطع الفرصة على الكمبيادور فإن جيشه هو الوحيد القادر على عرقلة كتيبة الموت إن قدّرت المواجهة بينهما طمعاً في سرقسطة أو في مال المنتصر فينجده ويعيده إلى سدة الحكم. إنها معادلة صعبة ولكن لا بد من اتخاذ قرار سريع و... جريء.

ثم قال لنفسه: اليوم الإثنين، والتنصيب الجمعة، فلا أظن المنتصر ولا أحداً من حلفائه قادراً على حشد جيش خلال ثلاثة أيام ليفسد علينا ما نحن بصدده. ثم إن المدينة وحاميتها في صف واحد، والمنتصر تحت أعين الحرس والثوار ولا إخاله يجرؤ على الزج بنفسه

في مخاطرة تضعه تحت رحمة الحظ أو سيف الجلاد، وألفونسو لا بد زاحف إلينا ولن يستطيع هزيمتنا بسهولة ويسر، فلا بد له إذن من ضرب الحصار حول سرقسطة إن هو نجح في ابتلاع الحصون الصغيرة، فنحن إذن بحاجة إلى كل درهم ودينار وإلى كافة أنواع المؤن والعتاد.

رفع الوزير رأسه أخيراً إلى مسرور الواقف أمامه كالصنم ثم قال له:

" سنعطي سيدك الجشع ما يريد فإلينا بالتفاصيل ".

(23)

في بيت عكرمة

دخل عكرمة بن إدريس بيته متعباً بعد يوم طويل في القصر، فقائده سحبان لا يكاد يقطع بأمر من أمور الحرس بل ربما مر يوم كامل دون أن يروه، وعلى عكرمة أن ينادي الحرس ويصرفهم ويلبي حاجاتهم ويعالج ما يتعلق بهم من متاعب ومشاكل بحذر شديد خشية أن يتعارض تصرفه مع رأي رئيسه أو رغبة الوزير.

كان كثيراً ما يسائل نفسه عن السبب الذي دفعه لقبول هذا المنصب، فلقد حسب عرض التكليف عليه بغية التشريف لا أكثر، لشخصه ربما ولعشيرته غالباً بغية حفظ التوازن بين مكونات المدينة داخل حرس القصر، لكنه اكتشف مع مرور الوقت أنه قد زج به في معمعة من الأعباء التي لا تنتهي والتي لا يفتأ يرميها الأعلى على الأدنى حتى تجد صاحب خلق ومبدأ مثله يضطر للقيام بها حتى ينام مرتاح الضمير.

قطعت عليه حبل أفكاره جاريته التي استقبلته بابتسامتها المعهودة معلمة إياه بوجود غرباء يودون رؤيته وأنها أدخلتهم بيت الضيوف

ريثما يعود من عمله. تركها وتوجه متسائلاً عن هؤلاء الضيفان الذين يقصدونه حتى قبل عودته إلى داره، مع العلم بأن جميع أصحابه وأقربائه وخلانه يعرفون متى يستقبل الناس ومتى لا يفعل.

وقف أحد الرجلين مع دخول مساعد قائد الحرس فكشف اللثام عن وجهه وابتسم للرجل الذي شهق وتسمّر للحظات في مكانه لشدة المفاجأة التي أبكمته، ثم ابتلع ريقه واستجمع أمره وقال:

- سيدي أحمد... هذا شرف لي، ولكن...
- لا تقلق أيها الرجل الطيب، لا أحد يعرف بوجودي عندك الآن، اللهم إلا بعض من أثق بهم من أخص أعواني.
- ما هذا قصدت، معاذ الله...
- لا بأس عليك. أأجلس أم أنصرف؟
- تفضل بالجلوس... في الواقع إنني...
- لم تكن تتوقع أن تراني، أفهم ذلك. ولقد تعمّدت أن آتيك في غفلة عن العيون لأمر هام جداً، أمر يتوقف عليه إحقاق الحق وصلاح أمر الناس، ولكن قل لي أولاً، ما رأيك فيما جرى مؤخراً؟
- والله يا سيدي إنما أنا واحد من الناس، ولا أعرف أكثر مما يعرفون.

- برغم عملك داخل القصر؟

- برغم عملي داخل القصر.

- ألا ترى هذا غريباً نوعاً ما؟ أقصد أنك تمضي أكثر نهارك في أروقة القصر وتحتكّ بعلية القوم وتخالط الحراس المكلفين بحمايتهم، فإن كان الأمر كما يقال فلا بد أن يكون جندك أدرى الناس بذلك وأولهم اطلاعاً عليه، بل لو كان صحيحاً فهم أحرى أن يكونوا مصدر التسريبات والإشاعات، فهل طرق سمعك شيء من ذلك؟

- أصدقك القول بأني لم أسمع لا من الجند ولا في الديوان أو البهو الذهبي شيئاً من ذلك، ولقد استغربت ما تناقلته الألسن بادئ الأمر. ولكن تضافر الأدلة وانتشار حديثها بين الناس كالنار في الهشيم وبناء الوزير عليها ثم استسلام جناب الملك غلب ما كان عندي من الشكوك.

- حسناً. لنفرض أن الأدلة والبراهين التي بنى الناس عليها دعواهم لم تظهر فهل كنت ستشك ولو للحظة واحدة أن الملك يمكن أن يفعل ذلك؟ أن يكيد في الخفاء وهو صاحب الأمر والسلطان.

- لا أظن، وإن كان كل شيء ممكناً في هذا الزمن.

- فماذا إن قلت لك أن البراهين والأدلة ملفقة كلها؟
- ولكن من يستطيع فعل هذا في غفلة عن عيون رجال الدولة يا سيدي؟ قد ينجح الرجل في تدبير أمر صغير دون أن يفطن إليه أحد، أما أن يدبّر أمراً بحجم ما شهدنا فلا بد أنه شيطان.
- هو شيطان حقاً، وسنبطل سحره ونفضح أمره، ولكن عدني أولاً أن تكتم ما سأحدثك به عن جميع الخلق، حتى أقرب المقربين إليك.
- لك ذلك يا سيدي.

ومضى الرجل يحدث مضيفه وامتد بهم المجلس حتى غابت الشمس فصلوا المغرب في الدار ثم خرج الضيفان متخفيان تحت جنح الظلام. وخلال هذه الساعات، كان ثلاثة رجال ملثمين يختلون بعلقمة بن أدهم كبير الصقالبة بعد وفاة الوزير أبي الفضل، وبعد أن انصرف الثلاثة استدعى علقمة شيوخ قومه وبعض فرسانهم فاجتمع بهم ولم يخرج منهم أحد حتى أذان الفجر.

(24)
يوم الخميس

لبس الشيخ الهرم خوذته ثم أعطى أمره لجنوده بالتحرك وفق الخطة التي درسوها جيداً للكمين المحكم. إنها حرب لم يكن يتمناها ولكنها فرضت عليه، ولقد مرت سنوات طويلة منذ ركب فرسه للحرب آخر مرة، ولكن يبدو أن الله قد مدّ في عمره لأجل هذه اللحظة، فهو لا يدري أيخرج حياً من هذه المعركة أم يعود محمولاً على الأعناق.

ومضى على مقدمة الجيش الصغير يتذكر كيف بدأ الأمر قبل أشهر قليلة عندما زاره ذلك الشاب ومرافقه، وفاتحه بشكوك راودته ومعطيات تحصلت لديه. حاول إذ ذاك أن يبدد وساوس الشاب ويقلل من شأن شكوكه، ولكنها كانت أقوى من مجرد ظنون، وكان لدى الفتى من الإصرار وقوة الحجة ما أجبره على الخروج من عزلته التي كان اختارها. صحيح أنه لم يبق له من قوة الشباب شيء يذكر، ولكن كان له من الحنكة والدهاء والخبرة ما يكفي لمواجهة الشر.

ومنذ ذلك الحين كثر التواصل بين الشاب وبينه بشكل مباشر أو عن طريق رجال من خواص أعوانهم. وقد تكشفت له في هذه المدة القصيرة حقائق كثيرة ومكر عظيم لم يكن يتخيل إمكان تدبيره في خفاء شديد، ولذا وجبت مواجهة المكر بمكر أشد منه وأخفى، كان منه أنهما جهزا هذا الجيش بسرية تامة ونجحا في سحب أعداد كبيرة من جند بعض القلاع تحت ستار كثيف من السرية والتضليل وعتمة الليل. والآن قد حانت لحظة المواجهة، وأي خطأ أو خلل يعني الفشل والموت المحتم، ليس لهما فقط وإنما لكثير ممن يحبون. وقد كان لزاماً تجرع كأس لم يكن أي منهما يحب أن يقربها، ولكنها الضرورة، فتم التواصل مع السيد وإغرائه بمعاونتهم فيما هم مقدمون عليه، ليس لأجل المبادئ ولا التاريخ، وإنما المصلحة الصرفة، فعدوّهما واحد ومحوه من الوجود يصب في مصلحتهما، فليكن إذن علقم السيد لتجنب سم العقرب.

في هذه الأثناء، كان الوزير يدخل على الملك مجلسه الخالي إلا من الحراس في قصر الجعفرية دون استئذان أو حتى إلقاء السلام. نظر إليه نظرة استهزاء واستخفاف، وكان هذا الأخير غارقاً في شروده

بوجهه المكفهر الذي كان ذبوله في أسبوع أشبه ما يكون بمن قارع الهم والحزن دهراً.

- هيه يا إسماعيل، تراك تعد ساعاتك الأخيرة. املأ ناظريك من هذا المكان فهي آخر ليلة لك فيه.
- أجئت لتشمت بي يا أحمد؟
- في الواقع لم يكن هذا غرضي، ولكن لا ضير في شيء من الشماتة في مثل هذا الموقف.
- قل ما تريد ووفر عليّ عناء الذل فقد نلتَ ما ترجو وزيادة.
- لست أنت من يعطيني الأوامر، وإن كنت لا تزال جالساً على هذا العرش فبفضل مني لا بقوة منك، فوفر نصائحك لنفسك وخص نفسك بأوامرك.

أجل أتيت لأتشفى، أتيت لأمتع ناظري برؤيتك تعتصر ألماً على ملك زائل، إن مما يقنعني بالانتظار حتى يوم الجمعة رؤيتك تذبل وتذوب وتعيش الهم والغم والحسرة والقلق كل يوم. أتذكر يوم وكزتني بصولجانك غاضباً عندما انتزع منك أخوك حصن وشقة بمعونة النصارى؟ أتذكر يوم شتمتني لأني لم أكن حازماً مع بعض

موظفي الديوان المتكاسلين؟ أتذكر يوم سخرت من رأيي يوم نصحتك بعدم دفع المكوس لملك قشتالة ونفاره؟ إن كنت نسيت فإني لم أنس ذلك يوماً، حتى وإن كنت تعتذر بعد كل مرة فلم يكن ذلك ينفعك؛ فأي ملك هذا الذي يهين أقرب الناس إليه وأوفاهم، وأي ملك هذا الذي يعتذر بانكسار مضيعاً هيبة ملكه وسلطانه. لا يا إسماعيل، إن كنتَ كثير النسيان فلستُ كذلك.

- أتحمل عليّ هذه الهفوات ومثلها يقع في جميع القصور بل أشد؟
- والله أحمل وزيادة. لقد تركت راحة البال لأجلك فبأي شيء قابلتني؟ ظننتني خاتماً في يدك ترميه متى تشاء وتهديه من تشاء؟ كم مرة تدخلت في شؤون عملي كأنك الملك والوزير؟ وكم مرة تركتني أتخبط في الحيرة لأقرر بالنيابة عنك ما هو متعلق بك لا بسواك؟ إن مثلك لا يصلح للملك، لكن غدا سينتهي كل شيء وستوضع الأمور في نُصُبها.
- والله لا أكاد أصدق ما أسمع! كنت أستشيرك في كل صغيرة وكبيرة، وأعاملك مثل أخي بل مثل نفسي، وأطلقت يدك في المملكة تتصرف فيها كما تشاء، وعضضت على جروح كثيرة

لكيلا أجرحك بكلمة أو موقف أو قرار، ورأيتك تبعد أقرب العمال والمساعدين فسكت ولم أمنعك إقراراً لجميلك واحتراماً لمركزك، ثم أنت تقلب لي ظهر المجن!

ثم هبني كنت مخطئاً في كل ما فعلت، ألم تكن أنت وزيري ومستشاري ويدي وصوتي؟ فبأي حق أبوء بالوزر كله وتنهض أنت لتجني الثمر؟

- لا تلومن إلا نفسك، فلو كنت أهلاً لهذا العرش لعرفت كيف تحافظ عليه. المهم، دعنا من هذا الحديث وأنصت إليّ جيداً. غدا سيخطب الجمعة قاضي القضاة، وسأرسل إليه أبيّن له ما يتوجب عليه قوله. ثم تقف أنت عقب الصلاة مباشرة والناس مجتمعون فتتكلم، ولتختصر ما استطعت، ثم تعلن تنازلك عن الحكم لي وهنا تتنحى جانباً وتقدم لي تاج الملك والصولجان بمعاونة قاضي القضاة، وتبقى واقفاً إلى جواري متأخراً عني حتى ينفضّ الجمع ونعود إلى القصر. وأحذرك إن أنت أخللت بشيء مما ذكرت أو نطقت بما يكدّر عليّ صفو هذا اليوم فإن نساءك وأبناءك سيحل بهم العقاب الأليم قبل أن تلهب السياط جسدك

على مرأى من الناس ومسمع، أمّا إن فعلت ما أمرتك به حفظت عليك أهلك ونجوت برأسك.

- وهل تظن هذا سينطلي على الناس؟
- الناس يهمهم ما يرون ولا ينظرون أبعد من ذلك، ثم إنهم حانقون عليك وعلى حكمك وسيرضون بأي حاكم آخر ولو جاءهم ألفونسو نفسه، فدع الأمور تجري على ما خططته لها ورسمت يكن خيراً للعباد والبلاد.
- وتضمن لي أن أخرج وذويّ إلى حصن روطة بسلام!
- ليس إلى الحصن، ولكن إلى قرية في نواحي روطة إن أردت، أو إلى دار كبيرة في طرطوشة نكتب إلى عاملنا فيها ليجهزها لك، أما الخدم والحشم فلا تتوقع أن يرافقك كل من في القصر، ولكن تختار منهم على ألا تتجاوز السبعة، عبيداً وإماءً مجتمعين.
- فليكن... أمري لله.

ومضى الوزير ليتابع تحضيراته ليومه المشهود، وقد أقلقه تأخر أخبار كتيبة الموت. كان قد سأل معاونه الأمين عن أخبارها في الصباح فأجابه بالنفي، ثم ها هو وقت العصر يدنو ولمّا يصله منها رسول ولا خبر.

لكن لا، لا يمكن أن يحدث شيء وهو على بعد ساعات من التتويـج، لا يمكن! كل الأمور تسير وفق ما خطط لها، ولم يظهر من خصومه ومناوئيه ما يدل على تحضيرات يمكن لها أن تعيق حفل التتويـج أو تعبث به. فليبق تركيزه الآن على الموعد المنتظر وبعد ذلك ينظر في جنده وشؤونهم وخصومه وعقابهم.

(25)

اليوم الموعود

كانت الشوارع قد أخذت زينتها كما الناس لهذا اليوم الرائق الجميل. لقد كان بحق يوماً من أجمل أيام سرقسطة، فكأن الطبيعة والزمان والدنيا قد اجتمعت على أن تجعل من هذا اليوم يوم عيد يفرح فيه كل بطريقته.

كانت قد جرت العادة أن يخرج الناس في العيد إلى الشوارع بأبهى الثياب وكامل الزينة فيملؤون الطرقات بهجة وسروراً، ثم يتزاورون فيما بينهم، ومن كان غريباً قصد البساتين والحقول حيث تختار بعض العائلات الخروج إليها مع آلات العزف والغناء فيأكلون ويشربون ويرقصون ويطربون، غير أنهم كانوا إن وافق العيد يوم الجمعة حرصوا عليها وخرجوا بعد الصلاة وخصوا صبيحة اليوم بالثياب الفاخرة المزركشة وتبادل الفاكهة والعصائر والحلوى إضافة إلى نحر الأضاحي وإطعام الطعام والتصدق على المعوزين بلا شك. كان الناس يتسابقون إلى تقديم ما يجودون به إلى الجيران والغرباء

على حد سواء. وبما أن الشوارع كانت مدججة بالحرس والعساكر فقد نال هؤلاء من غنائم العيد نصيب وافر.

صاح أحمد بن علي في عكرمة غاضباً وهو يجيء ويذهب في حجرته بسرعة كمن قد حُرّم عليه الجلوس:

- أين سحبان لم يظهر بعد، أم أنه نسي أن اليوم هو يوم الجمعة؟
- لقد وجدناه هذا الصباح يا سيدي غارقاً في فراشه كالقتيل. حاولنا إنعاشه دون جدوى. وقد قال لنا أحد أصحابه أنه شرب طوال الليل حتى طلعت الشمس فحملوه وهو يهذر ويهذي بما لا يعي إلى داره لينام غير أنه سبب لهم الكثير من المشاكل في الطريق وخاصة مع رجال الشرط والنساء المبكرات إلى السوق.
- سيكون لي معه شأن آخر، أما كان يستطيع الانتظار ليوم واحد قبل أن يشرب ويسكر.
- إنه لا يصغي لأحد ممن هم تحت يده يا مولاي مهما بذلنا له من النصح الصادق.
- دعنا منه الآن، هل أنت مستعد لتخرج على رأس الحرس إلى المسجد الجامع؟

- تمام الاستعداد يا مولاي؟

- فليكن إذن، ونبّه على جميع الأفراد أن يكونوا على أعلى درجات الانضباط والطاعة واليقظة، لا أريد مشاكل تنتج عن التكاسل والإهمال، وعدهم بمكافأة مجزية بمناسبة تنصيبي ملكاً.

- أمر مولاي، حفظكم الله وأدام عزكم وأعلى شأنكم.

وخرج الموكب الملكي من قصر سرقسطة تتقدمه الطبول والأعلام، والجند المدججون بالسلاح على جانبي الطريق، والخيول وقد أسدلت عليها أبهى الحلل، وشرع الموكب يدور في طرقات وسط المدينة التي امتلأت بالناس عن بكرة أبيها قبل أن يقصد إلى المسجد في حفل استعراضي مهيب.

كان الوزير على الرغم من هذه الأجواء الاحتفالية قلقاً يفكر في كتيبة الموت وسر انقطاع أخبارها، ولم يكن ليتخيل قط أنها كانت، مع مغيب شمس يوم الخميس، قد أبيدت عن بكرة أبيها في كمين محكم لم تكن لتنجو منه بحال من الأحوال، إبادة لم يحسب لها الوزير ولا أعوانه حساباً قط وما كان ليتخيلها لا هو ولا حتى ألد أعدائه.

مع بلوغ الشمس كبد السماء كان الموكب الملكي يبلغ وجهته ويدخل المسجد ويأخذ كل فرد مكانه فيه. أسرع قاضي القضاة يجهز نفسه لصعود المنبر، وقبل أن يفعل قصد إلى الملك فألقى التحية على الوزير أولاً وبادله الابتسام ودعا له بأجمل الدعاء ثم التفت إلى المنتصر فحياه بجفاف واختصار ثم استدار قاصداً المنبر الخشبي الكبير ذي النقوش الرائعة والألوان الزاهية فإذا به يفاجأ بالشيخ الحسن بن عبد الله إمام سرقسطة والثغر الأعلى دون منازع يصعد درجاته، وتطلّب الأمر وقتاً غير قصير ليستوعب قاضي القضاة الصدمة، وكذلك كان حال الوزير. فالعلامة ابن عبد الله التجيبي كان يرفض أن يخطب بالناس، وكان في عزلة إلا عن خواص الخواص من طلابه ومريديه، وهمّ القاضي بأن يهتف بالشيخ لينزله عن المنبر غير أن بقية حياء فيه منعته من ذلك، فأخذ يومئ إلى رئيس الحرس فلا يزيد الآخر أن يتلفت باستغراب وعلامات الحيرة وانقطاع الحيلة بادية على وجهه. وامتقع وجه الوزير وأخذ يتمتم غاضباً وسرت همهمة بين الناس وعلا الهمس مع كل درجة يرتقيها الإمام المنبر حتى استوى واقفاً فحمد الله وأثنى عليه وشرع في خطبته دون انتظار

إشارة أو إذن من أحد فما كان إلا أن هدأت الجموع وأنصت الناس وكان مبتدأ خطبته من سورة الحجرات: *{يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين}*... ودفن الوزير وجهه في كفيه.

بعد الصلاة مباشرة، وقف المنادي يطلب من الناس الجلوس والإصغاء، فعند الملك كلام مهم جداً يريد أن يلقيه على مسامع أهل سرقسطة جميعا.

وقف الملك فحمد الله وأثنى عليه، ثم ذكر ما كان من شأن الفتن التي عصفت بالبلاد والتي كان مما أسفرت عنه الثورة التي وحدت الكثير من أبناء المدينة على اختلاف أعراقهم ومشاربهم ومآربهم، ولكنهم خرجوا جميعاً يطلبون تنحي الملك. سكت الملك هنيهة ثم قال:

" وإني بناء عليه، واستجابة لرغبة الناس الملحّة وللحال التي آلت إليها البلاد، أعلن تنازلي عن الحكم للرجل الذي يستحقه، للرجل الذي أحب سرقسطة منذ صباه، والذي أعطاها من ماله ووقته واهتمامه وجوارحه، للرجل الذي دافع عنها بكل ما أوتي من قوة،

والذي أنا واثق كل الثقة بأنه لن يخذلها يوماً من الأيام، أشهدكم جميعاً أني أتنازل عن الحكم للأمير أحمد المستعين بالله".

وخيّم الصمت والذهول على الحاضرين. وقد كانت كلمات المنتصر بدأت ترسم ابتسامة خفيفة على وجه الوزير أبي علي بعد أن محتها خطبة الإمام الحسن بن عبد الله، غير أن آخر كلمة نطق بها الملك محت هذه الابتسامة إلى الأبد وجعلت الدم يتجمد في عروقه، بل لقد احتاج إلى وقت ليستوعب فيه ما يجري من حوله. نظر يمنة ويسرة فلم ير للأمير أثراً، وقد كان تأكد من قبل عبر عيونه المبثوثين في أرجاء البلاد أن الأمير في حصن روطة لم يغادره منذ عشرة أيام أو يزيد.

نظر إلى المنتصر بانفعال وهو يقول:

- هل قلت أحمد المستعين بالله؟ لا بد أنك مخطئ!
- هو ما سمعت يا وزيرنا.
- ولكن... ما الذي يجري هنا بالله عليكم؟

فلم يزد الملك على أن حرك رأسه تأكيداً لما قال.

في هذه اللحظة تحرك أحد الحراس الملثمين فنزع خوذته وأماط

اللثام عن وجهه فإذا به الأمير المستعين بالله أحمد بن إسماعيل بن سليمان بن عواد.

صرخ الوزير بالحراس لكي يلقوا القبض عليه، غير أنّ هؤلاء أحاطوا بالوزير نفسه وشهروا أسلحتهم ولم تنفعه شتائمه ولا تهديداته شيئاً. نادى مساعديه ليأمروا الجنود الذين يملؤون الطرقات بالتحرك، فتوجه المساعدون جرياً إلى قادة هؤلاء ليجدوهم وجنودهم ما بين نائم وثمل ومستلق على ظهره يضحك ويكلم نفسه فلم يفهموا شيئاً مما يجري.

اعتلى الأمير أولى درجات المنبر ليكون على مرآى من الناس ومسمع، فلما رآه الثوار هبّ بعضهم واقفاً وشرعوا في تحريض الآخرين، فإذا بفرسان الصقالبة يقفون بين الناس وسيوفهم معلقة على وسطهم ويطلبون إليهم الجلوس والإصغاء إلى الأمير حتى يفرغ من كلامه، فغرق الجميع في حيرة ما بعدها حيرة.

حمد الأمير الله وأثنى عليه ثم خطب خطبة جاء فيها:

"ولقد كان والدي المنتصر حفظه الله قد استعمل عدداً من الذين

وثق بهم لإدارة شؤون البلاد، فمنهم من أبلى بلاء حسناً، ومنهم من قصّر، ومنهم من أخطأ فقوّم أو عوقب أو أهمل، وكان منهم كذلك من تبين أنه ليس بأهل لحمل الأمانة فمثله لا يعهد إليه بأمر وإلا أضاع الأمانة وضيع الحقوق. ولكن الأسوأ من هؤلاء جميعاً رجل وثقنا به كل الثقة، ففتحنا له أبوابنا وأسبغنا عليه من أفضالنا وأسلمناه أمرنا وأعطيناه مفاتيح دولتنا وأطلقنا يديه بسلطاننا فماذا كان؟ كان أن خان الأمانة وضيّع العهد وكاد لنا كيد ألدّ الأعداء في السر والخفاء، فإذا به ينصح بالفساد ملبساً إياه لبوس الرشاد، ويؤلب الناس علينا ويراسل أعداءنا ويغريهم بالهجوم على أراضينا. ثم إذا به يشتدّ عدوانه ويتمرد شيطانه فيفضي إلى الأعداء بأسرار الجيوش وخطط الحرب ليثخنوا فينا بالقتل والضرب، إلا على جيش كان هو على رأسه، أو أمّر عليه أحداً من خاصته وجنده؛ فيعزا إلى شخصه الظفر والنصر، وإلى الملك التقهقر والخسر. ثم يعجبه كيده الخائب وتدبيره الحاقد فيبالغ فيه حتى يكيد لخصومه فيتخلص منهم باسم السلطان، والعدل والميزان، ثم يقتل منهم من شاء في السر والعلن، ويحرق الدور ويؤجج الفتن، ثم يرمي بذلك كله على

الملك ليثور الناس عليه فينتحي إليهم ويفوضون أمرهم إليه، فينقضّ من بعد انقضاض الصقر والشاهين على الملك الأمين فينتزع سلطانه ويجلس على العرش مكانه. إنه الوزير أحمد بن علي المعروف بالزاهد! لقد خدعنا بزهده وتقواه، وحرصه علينا فصدقناه، وربما كان في بداية أمره صادقاً، ولكنه عن الحق حاد حتى غدا مارقاً، وقد قامت لدينا الأدلة على خيانته، وإنه لمؤاخذ ببعض جريرته، فاسمعوا يا ناس واحزموا أمركم فيه، وانظروا بعين العاقل النبيه، وانقضوا ما كان من نسجه وغزله، ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله".

وصمت المستعين، وصمت الناس وقد غشيهم الذهول، ثم بدأ الهمس يتعالى، ولم ينتظر الوزير كثيراً حتى صاح:

- هذا كذب ومحض افتراء، إنما هي مكيدة دبرتموها لتتخلصوا مني. إني والله لن أسكت على هذا الظلم، تقتلون الناس وتهلكون العباد ثم تلقون بهذا عليّ! لا والله لا تنطلي عليّ هذه الألاعيب. أنا الوزير أبو علي، حامي حمى هذه الدولة وباني مجدها وصائن عزها يفعل بي هذا كله؟ أين سحبان وحرسه، أين خدمي وحشمي، أين معاونيّ وجندي. الويل لكم مني ومنهم، ومن الناس

وغضبهم، ومن كتيبتي عندما تعود من مهمتها فإنهم لن يخذلوني ولن يسلموني للموت ولمكركم الخبيث.

قال المستعين بهدوئه المعهود:

- لا داعي لكثرة الصراخ ورفع العقيرة، فإن الحق أبلغ وأبلج وأقوى، إليّ بالشهود.

ما إن نطق الأمير بهذه الكلمات حتى خرجت من إحدى غرف المسجد المغلقة طائفة من الحرس تقود عدداً من الناس بعضهم مكبّل مهان وبعضهم مقدّر مصان ومضوا بهم حتى وقفوا بجانب المنبر والناس يتساءلون عنهم من يكونون. أما الوزير فما إن رآهم حتى فغر فاه وأسقط في يديه.

- أظنك تعرفهم حقّ المعرفة يا وزيرنا! فها هو مساعدك المخلص سحبان، لقد اعترف بكل شيء بعد أن كاشفناه بالسرقات والاختلاسات التي كان يقوم بها مستغلاً المنصب الذي عهدت به إليه، فشرح لنا كيف أمرته بتبديل حرس القصر وإبعادهم واستعمال جندك مكانهم ليكونوا سيفك على الملك عندما يحين الوقت.

وهذا هارون الاسرائيليّ شقيق موسى الترجمان، الذي أرسلته إلى ألفونسو تفضي إليه بخططنا لغزو مدينة سالم ووادي الحجارة وتغريه بالهجوم على المنتصر أثناء عودته. فلما كان ما أردت تدخلت لتضرب كلا الطرفين وتظهر بصورة المنقذ البطل. وكذا فعلت مع غيره من الملوك والخصوم وكان آخرهم عضد الدولة الذي أغريته بالهجوم على ركانة ويسّرت له الاستيلاء عليها، ثم استعدتها منه بأيسر السبل تحقيقاً لمآربك وتغذية لمطامعك. وأين موسى اليوم؟ لقد قتلته بالسم لكيلا يبوح بشيء مما يعرف فتضيع الثورة التي صنعتها أنت لتركبها وظننت أنه صدقك الوعد ولم يبح لأحد بما كنت تأمره به، ولكنه كان يفضي بكل شيء لأخيه حرصاً على سلامته وسلامة ذويه.

وهذا الرجل... تذكره بلا شك.

وهنا تقدم رجل معصوب الرأس قاسي قسمات الوجه تبدو عليه سيم البلاهة والجمود. أما الوزير فلم يصدق عينيه وصاح دون أن يتمالك نفسه: " ولكنه قد مات! ".

شكره الأمير على هذا الإقرار وأكمل:

- صحيح، لقد مات لأنك قتلته بيديك. لكنّ أقدار الله كانت أرحم من قلبك الصلد فنجّته وحادت ضربتك عن أمّ رأسه فكانت إصابته طفيفة غير أنه سقط وحمله النهر حتى ألقى به في بعض ضياعنا فتلقيناه وعالجناه وسرعان ما استفاق وباح لنا بكل شيء. هذا هو عبدون خادمك المسكين الذي أجبرته على كل قبيح من التصرفات وذليل من الأعمال مهدداً إياه بزوجه وأبنائه، أجل يا قوم، لقد قام هذا الرجل بحرق دور الصقالبة، وبمحاولة اغتيال الوزير المصطنعة لجلب تعاطف الناس وتوريط أبي الفضل رحمه الله والتخلص منه، وهو أيضاً من وضع الأدلة المزيفة أمام دار علقمة بن أدهم وكبير التجار وغير ذلك من الأعمال القذرة، ثم لمّا لم يعد للوزير التقي الورع حاجة إلى عبدون لم يتورع عن تدبير مقتله والتخلص منه حفاظاً على سرية مكيدته ونجاح خطته. ولذا أشعنا خبر موت الرجل ودفنه ليطمئن سيده وينسى أمره.

وهذا الرجل الطيب هنا، إنه تاجر نصراني من أهل سرقسطة، كان حاضراً في قصر ألفونسو لبعض شأنه يوم وصله رسول الوزير

ليحرضه على الغدر بنا ونقض العهد الذي بيننا وبينه، ولكنه كان أحرص على أهل مدينته وبلده من وزيرنا المؤمن التقي الورع الزاهد. فلما عاد إلى سرقسطة بعد حين قصد إلى شيخ مشايخنا الحسن حفظه الله وحكى له ما سمع في بلاط قشتالة وخيراً فعل، إذ أنّ الرجل لم يكن ليأمن على نفسه داخل قصر يتحرك فيه الخائن الكبير بكل ثقة واطمئنان، فأوعز الشيخ إلى مؤدبنا وشيخنا العراف لنحتاط من هذا الدعي الماكر، ولكنّ هذا الأخير كان موضع ثقة الملك الوالد فكان لا بد من الحكمة والحذر واستقصاء الأدلة لنقطع الشك باليقين وتتبدد الغشاوة عن أعين المسحورين.

صاح الوزير وقد احمرت عيناه وكادتا تفيضان بالدموع:

- هذا كذب ومحض افتراء، إنّ شيئاً من هذا لم يكن. إنهم شهود زور، هي مكيدة يا أهل سرقسطة فلا تخدعنكم، قوموا يا ناس واستردوا ثورتكم...

لكن أحداً لم يحرك ساكناً هذه المرة، بل قد تعالت بعض الأصوات بالشتائم للوزير دون مراعاة لحرمة المكان والزمان. وأشار المستعين

إلى أعوانه فوضعوا الأصفاد في يدي الوزير واقتادوه إلى سجن القلعة، وعاد الشهود من حيث أتوا. أما قاضي القضاة فلقد توارى عن الأنظار، وأما المشايخ والعلماء وأعيان البلد وكبار المستخدمين في القصر فقد اصطفوا لكي يهنؤوا الملك المعتزل على سلامته والملك الشاب على شجاعته وتنصيبه، وكان لا يزال في ثياب الحرس التي سبق أن ارتداها متخفياً غير أنهم وضعوا على كتفيه جبة تليق بالملوك العظام.

(26)

النهاية

كان الفجر قد شارف على البزوغ حين فرغ إسماعيل من قص مجريات أحداث اليوم السابق على أمراء وأميرات بيت الملك، وكان فخوراً بابنه أيما فخر حتى إنه لم يُخف استغرابه كيفية تدبيره المحكم والمضاد لتدبير الوزير وكيده.

قالت الأم تمدح ابنها ثم تسأله بصوت حان مشفق وإن كان لا يخلو من مسحة لوم:

- هذا هو ولدي الأغر، إني فخورة أن بطني أنجبت مثلك يا ملكي الحبيب، ولكن أما وقد نجحت في رد كيد الخائن في نحره فلماذا لم ترفض تولي الملك يا ولدي وتترك الأمور في يد أبيك، فهي آيلة إليك بعد عمر مديد إن شاء الله؟

- كنت أتوقع منك هذا السؤال يا أمي الغالية، ولقد ردّدت النظر فيه كثيراً، غير أنه لا يليق بالملك أن يرجع عن قرار كبير مثل هذا، وأكثر

منه أن إعلانه جاء أمام نصف أهل سرقسطة أو يزيد. فأي شيء سيقول الناس؟ يغار من ابنه، يتردد، لا يثق بفلذة كبده... العرش عنده أغلى من ولده... وحاشى مولاي الملك، ولكن هيبته أغلى عندنا جميعاً من أن تلوكها ألسنة الناس وقد ناله منهم ما كفى. وكان هذا ضرورياً كذلك لكيلا يبقى في صدور الناس شيء مما غرسه الماكر خلال سنين وإن كان بقاؤه على العرش عندي أحب من أي شيء آخر ولكنها المصلحة وما تقتضيها.

سألته أخته بحماس:

- وكيف أوصلت له الخبر على الرغم من الرقابة الصارمة التي كان يفرضها الوزير عليه؟
- هذه كانت سهلة للغاية، فالوزير كان يراقب الداخلين عليه مجلسه والخارجين منه، وكان رجاله يفتشون حتى أطباق الطعام، ولكني اجتمعت بعكرمة بن إدريس وكان الوزير قد وضعه تحت دميته سحبان الداودي ليضمن رضا قوم عكرمة أو على الأقل سكوتهم عنه، ولكن عكرمة رجل نبيل مستقيم، فلما اجتمعت به وكاشفته ببعض ما لدي من الحقائق أبدى تعاوناً تاماً، فكان أول ما اتفقنا

على فعله هو الإيقاع بسحبان ليلة الجمعة لكيلا نلفت نظر الوزير مبكراً، فيقوم هو مقام رئيسه في قيادة الحرس فيضع رجال الوزير منهم في أماكن بعيدة ويستدعي رجالاً أشداء ممن يدينون بالولاء للملك فيزرعهم من حوله فيكونون له درعاً يوم الجمعة من كل مكيدة وشر. وهو الذي دس لمولاي الملك ورقة صغيرة طلبت منه فيها أن يسميني بعد أن يوهم الوزير بأنه ماض في لعبته، وهو الذي مكنني كذلك من الدخول في الموكب بزي الحرس فلا يرتاب بوجودي أحد.

آه، فاتني أن أخبركم أني لم أدخل حصن روطة منذ أيام ولكني كلفت أحد أعواني بارتداء ملابسي والتنقل على أسوار الحصن والخروج راكباً في نواحيه، منبهاً على عدم خروج أي شخص من الحصن إلا بإذن مني أو ممن ينوب عني هناك كيلا يشك الوزير في اختفائي.

- أنت رائع يا أخي، لم يكن أحد يتصور أنك ستخطط لكل ذلك وأن تنجح فيه مثل هذا النجاح الباهر.
- هذا بعض ما أعطاناه والدنا المنتصر حفظه الله.

- ولكن لم تقل لنا ما الذي حل بالجنود في الطرقات. أعني كيف غشيتهم نوبات الضحك والنعاس؟

- هذا من أطرف ما في هذه المسألة، فإني عندما كنت أجمع الخيوط في الخفاء وأضع الحلول لكل مشكلة على حدة كنت أستشير من أثق به ممن له خبرة في شؤون الدولة والحكم، وكان منهم إبراهيم بن يحيى الذي التقيته في أروقة القصر يوم عزله الوزير الغشوم فأدركت حينها أنه، أعني الوزير، قد شرع في تنفيذ مرحلة متقدمة من مخططه الخبيث، فصارحت ابن يحيى ببعض ما عندي وعرضت عليه العمل معي في تقويض مخططات الوزير الماكر فاستجاب على الفور. وكان أول ما قام به بثه عيونه داخل القصر ليعلم من يعزل القائم الجديد ومن يعيّن، لنعرف أين بالتحديد يضعون رجالهم. ثم لما ضرب الخائن ضربته اقترح إبراهيم دس شيء في طعام الجنود وشرابهم يكفينا شرهم، ولما سألته عن كنه هذا الشيء ذكر لي عجوزاً تدعى فاطمة كانت تخدم في القصر ولكنها أمست طاعنة في السن لا تقوى على السير والنهوض غير أنّ عندها علماً بالأعشاب ووفاء لأصحاب القصر، فوافقت إن كان

يضمن النتيجة. فقصدها إبراهيم واستشارها فأكدت أنها تعرف ما يناسب وأكثر، وكانت تريد أن تقوم بنفسها للبحث عن الأعشاب نصرة للملك، فهي تحبه وتقول أنّ أفضاله عليها لا تعدّ غير أنها عاجز فكلفت ابنة أخ لها لتجمع ما يكفي بعد أن أرشدتها إلى ما تحتاجه، ثم علمتها كيف تصنع شراباً تخلطه بما تحصل لديها وقد مزجته بأشياء لا أذكر اسمها فنتج منها ما يسكر ويغيب العقل أو ما يستدعي النوم أو يدني من الجنون. ثم أرسلنا فتيان الصقالبة بالشراب ليسقوا منه الجند في الطرقات منبهين عليهم ألا يسقوا غير الجند فإن هؤلاء سيغضبون ومنهم سينتقمون.

- وكيف مال الصقالبة إليك وكانوا هم أول من ثار.

- لقد ذهب الحاجب عثمان إلى كبيرهم علقمة واصطحب معه الخائب عبدون، فحكى له كل ما كان من أمره وأمر سيده ففهم علقمة المكيدة وكان رجلاً عاقلاً حازماً فرضي بما اقترحه عثمان ومضى معنا في التدبير المضاد.

هنا هتف المنتصر:

- عثمان، أبو المحاسن، أين هو... لقد نسيت أمره في خضم هذه

المعمعة. لقد كان هو من أوحى إليّ باستمهال الوزير أسبوعاً ثم اختفى. أكنت أنت من أوعز له بذلك؟

- نوعاً ما... كنت قد بثثته شيئاً من شكوكي بعد أن جاءنا خبر التاجر النصراني، وطلبت منه أن يبقي عينيه متيقظتين وأن يوافيني بالأخبار فكان ذا عون كبير في ذلك.

وكنا صبيحة يوم دخل الوزير سرقسطة قد عثرنا على عبدون مغمى عليه، فلما أفاق وحكى لنا حكايته أودعناه القلعة ثم قصدت سرقسطة متخفياً والمدينة تغلي ولكني وصلتها بعد أن فعل الوزير فعلته. غير أن عثمان كان سريع البديهة وقدّر أنه سيكون بمقدورنا فعل شيء إن نحن كسبنا مزيداً من الوقت فاقتحم مجلسكم متصنّعاً الغضب والدهشة وفعل ما فعل ليفضي إليكم بفكرة التأجيل وقلبه يتقطع حسرة وأسى. ثمّ اختفى عن الأنظار والتحق بالحصن حتى أرسلت في طلبه.

- وأين هو الآن إذ أني لم أره أمس رغم القبض على الوزير؟

- كان على رأس مجموعة من جنودنا يتصيدون قادة جند الوزير وأعوانه من كان منهم فاقداً وعيه أو مستعصماً في ركن له أو بين

عدد من أتباعه، أما غالب الجنود والشرط فهؤلاء يطيعون أسيادهم فلا خوف منهم حين يعودون إلى رشدهم.

- هذا كله جميل، ولكن لا يجب أن تنسى، أيها الملك الشاب، أنّ لدى الوزير عدة آلاف من المحاربين الأشداء والمجربين والذين لن يتوانوا عن نصرته عندما يعودون من... من حيث لا أدري.

- لا تقلق يا والدي العزيز، فلقد تم القضاء على كتيبة الموت.

- ماذا تقول؟ تم القضاء عليها! كيف ومتى؟

- لقد أرسلنا من يغري الوزير بالهجوم على قافلة مزعومة محملة بالأموال والهدايا موجهة من ملك بنى الرزين إلى ملك قشتالة، ولم يقاوم الوزير الإغراء فأرسل كتيبته الخاصة لاصطياد الغنيمة. وكنا أعددنا لها كميناً محكماً وقعت فيه يوم الخميس، أي قبل أن يحقق الوزير حلمه بيوم، واحتطنا كل الحيطة لكيلا تبلغه الأخبار قبل أن نفرغ من شأنه.

- ومن أين لك بالجند ومن كان يقودهم؟ فهكذا مواجهة لا بد لها من قائد مجرب خبير.

- أما الجند فجلهم من قلعة أيوب وحصن روطة بالإضافة إلى جند بعض الحصون الصغيرة، وكانت هذه مخاطرة لا بد منها إذ لا يجب إخلاء الحصون بحال من الأحوال، ولكننا نجحنا في سحب أعداد لا بأس بها دون لفت الأنظار. ثم استعنا بالسيد ردريغو دياث لكي نضمن تفوقنا في العدد والبأس. أما قائدهم فلقد كان أبا المطرف.
- أبو المطّرف! وزيرنا الأسبق.
- هو بعينه، فقد تولى الوزارة لكم ولجدي سليمان من قبل وهو رجل مجرب خبير كما ذكرت، ولا يكنّ للزاهد أي احترام أو تقدير، بل لقد أبدى الاشمئزاز منه ومن أفعاله عندما قصدته في ضيعة له وحدثته بالأخبار التي عندي وبما أنوي فعله، فكان وهو الشيخ الطاعن في السن خير ناصح وموجه في كل ما جرى.
- سبحان مقدر الأقدار، لقد كنت أتبرم بهذا الرجل ونصائحه حتى عزلته وأبعدته فإذا به خير عون لنا في محنتنا هذه.

على ذكر ألفونسو وبني رزين، لا أستبعد أن يدفعوا إلى ألفونسو بذهبهم كله للحفاظ على دويلتهم المتهالكة، ولكن الخوف من ألفونسو فإنه سيقصد ديارنا لا محالة فماذا نحن فاعلون؟

- أصدقك القول يا والدي أني لا أدري بعد؛ القلب يميل للحرب، والعقل للمهادنة والسلم إذ أنّ فتنة الزاهد قد استنزفت جيوشنا وأنهكت قوانا، ولعل الأيام القادمة ستحمل لنا بشائر ترانا أحوج ما نكون إليها.

وانفض المجلس العائلي لينال أفراده قسطاً من الراحة، لكن البلاد لم تكن على موعد معها.

في اليوم التالي، كان المنادي يجوب أحياء سرقسطة يشنّع بالوزير الخائن، وكان هذا الأخير قد أركب على أتان ووجهه للخلف والصبية يرمونه بالحجارة والنسوة باللعنات والرجال بالاستهزاء والسخرية والبعض بالشتائم والبصاق، ثم انتهى به المطاف معلقاً على بوابة المدينة والطير تأكل من رأسه.

أما في القصر فقد كانت المراسيم تتوالى بإعادة عثمان إلى مكانه مع خلعة ملكية بهية، وبتسمية علقمة بن أدهم الصقلبي وزيراً وبتعيين عكرمة بن إدريس قائداً للحرس وكذلك طال التغيير معظم رجال الدولة وأطاح بكل من أدخلهم الزاهد إلى البلاط.

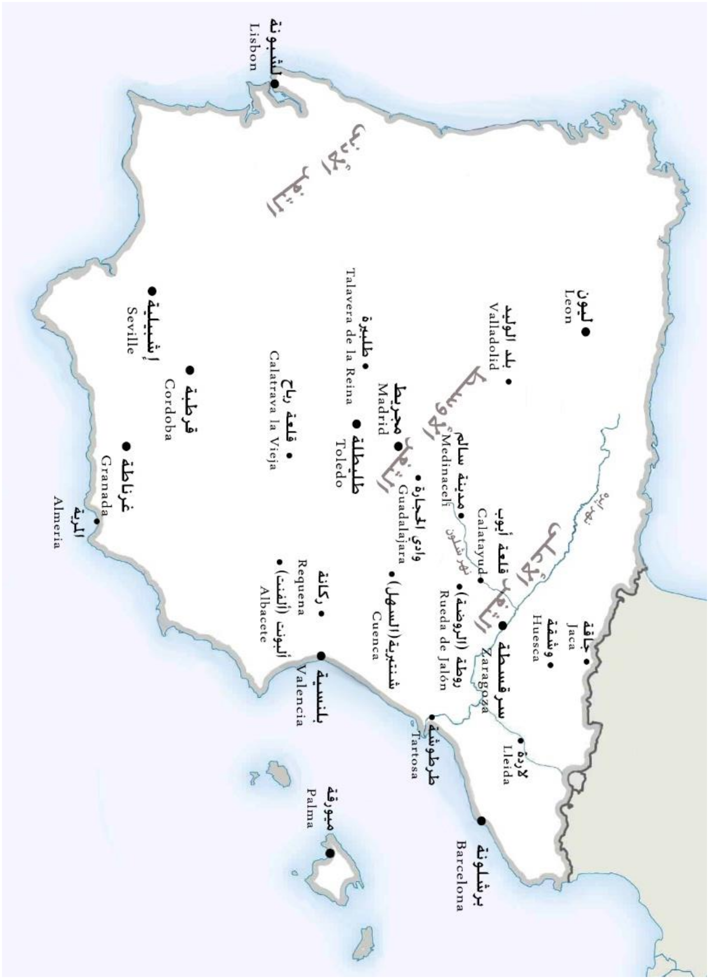
وحضر المجلس مؤدب الملك الجديد عندما كان فتى يافعاً الشيخ العراف، فطلب منه الأمير تولي منصب قاضي القضاة، غير أن هذا الأخير اعتذر مبيّناً أنه ليس أهلاً للقضاء، ولكنه سمى الشيخ عمر بن هانئ الطرطوشي المالكي لهذا المنصب فقبل الملك من فوره.

في الوقت عينه، كان الإمام الحسن بن عبد الله يعظ الناس في المسجد الكبير ويحذرهم فتن الدنيا ومصائد الشيطان، يحذرهم الفتن الظاهرة والأخرى الباطنة، ويحذرهم فتنة السلطان.

ودارت الأيام دورتها، وسارت الرياح بما لا تشتهيه السفن وعادت ممالك الأندلس تقتتل فيما بينها، وضرب ألفونسو حصاراً على سرقسطة طال حتى أشرف الناس على الهلاك، ولكن اضطره إلى فك الحصار عبور وافد جديد عدوة المغرب إلى الجزيرة... اسمه يوسف بن تاشفين.

~ تمّت ~

الخرائط



أبرز مدن الأندلس وتلك التي ورد ذكرها في الرواية

الخرائط



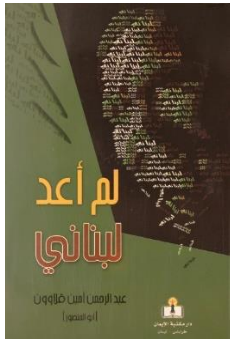
بيان تقريبي لحدود ممالك الأندلس التاريخية زمن الرواية

الفهرس

الإهداء 3
الجزء الأول 7
الهمّ 9
مع العجوز 17
أول الخيط 25
الزاهد 31
الوزير الجديد 39
الصدمة 43
محاولة الاغتيال 53
نصيحة 59
الجزء الثاني 65
في بلاط ألفونسو 67
حرب بني جندل 71
الكمين 77
في بلاط المنتصر 83
في بلاط جناح الدولة...93

بين الأب وابنه 99
المكيدة 107
المطاردة..111
الوزير! 115
في السجن 119
بين المطرقة والسندان 123
تحت جنح الظلام..129
انقلاب 133
الجزء الثالث 141
فرصة 143
في بيت عكرمة 151
يوم الخميس 155
اليوم الموعود 163
النهاية..177
الخرائط 187
الفهرس..189

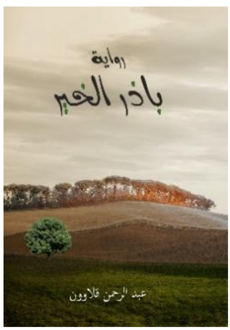
صدر للمؤلف


لم أعد
لبناني
عبد الرحمن أمين قلاوون
(أبو المنصور)


إملأ كؤوسك من دمي
عبد الرحمن أمين قلاوون
أبو المنصور


ديوان شعر
ما بين الظلمة و النور
أبو المنصور


حكايا المشرقي
أبو المنصور


رواية
باذر الخير
عبد الرحمن قلاوون


مذكرات
الفتى و الفتاة
أبو المنصور



يرث الأمير إسماعيل عرش سرقسطة عن أبيه لكنه سرعان ما يصطدم بعراقيل كثيرة تقض مضجعه. في غمرة الأحداث يتذكر الأمير صديقاً له يعرف بـ "الزاهد" فيستعين به ويسلمه الوزارة لتتحسن ظروفه وتتسع رقعة حكمه. وحين دنا من القمة بدأت المشاكل تنهال عليه مهددة حياته وملكه بسبب خيانة يتعرض لها من داخل القصر فهل تراه سينجح في الخروج منها سالماً ؟

هذا ما ستكتشفونه في طيات هذه الرواية المليئة بالإثارة والتشويق والتاريخ.

9 782956 817253